إيريك أوزبورن

Eric Osborn

فلسفة التاريخ عند آباء الكنيسة

ترجمة: عادل زكري

www.christianlib.com

فلسفة التاريخ

عند آباء الكنيسة

إيريك أوزبورن

ترجمة
عادل زكري

مكتبة
الرقم العام :
الرقم الخاص : ١/١٢٦
تاريخ الورود :

مدرسة الإسكندرية

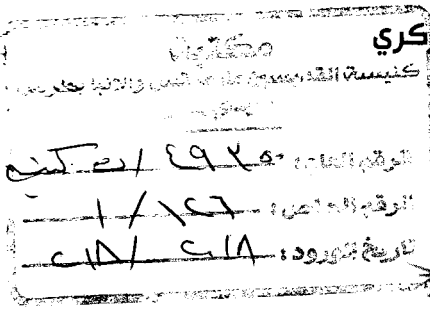

الكتاب: **فلسفة التاريخ عند آباء الكنيسة**

الكاتب: **إيريك أوزبورن**

ترجمة: **عادل زكري**

الناشر: **مدرسة الإسكندرية**

٣ شارع الفاطميين (الدور الأول)، متفرِّع من شارع عمر بن الخطاب، ميدان الإسماعيلية، مصر الجديدة، القاهرة.

تليفون: ٠٢٢٢٤٠٩٨٠٩(٠٠٢)

البريدالإلكتروني: administration@asfcs.org

الموقع الإلكتروني: www.asfcs.org

موقع التواصل الاجتماعي: asfcs.org

إدارة المبيعات: sales@asfcs.org

الطبعة: **الأولى، أكتوبر ٢٠١٨**

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٥٩٩٧ / ٨

الترقيم الدولي: ٨-٥٦٤١-٩٠-٩٧٧-٩٧٨

© **حقوق الطبع والنشر والاقتباس محفوظة للناشر**

قداسة البابا تواضروس الثاني

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية

فهرس المحتويات

مقدمة المترجم ٦

فلسفة التاريخ عند آباء الكنيسة..... ٨

هل التاريخ متصل أم منقطع؟ لماذا جاء يسوع متأخرًا جدًا؟..... ١٣

هل يوجد حدثٌ فاصلٌ يمكن أن نعتبره مركزًا للتاريخ؟ ٢٩

أين نقف الآن في مسار التاريخ؟ ٤٤

هل يحقق الإنسان تقدمًا في مسار التاريخ؟ ٥٥

كيف ستكون نهاية كل شيء؟ ٦٢

ختامًا ٦٨

مقدمة المترجم

فلسفة التاريخ.. هذا الفرع من فروع الفلسفة يُعنى بأمور في غاية الأهمية، ويتقاطع مع علم اللاهوت في نقاط كثيرة. فلسفة التاريخ تُعنى بالبحث عن:

هل يوجد هدف عام للتاريخ؟
هل يتحرك التاريخ نحو غاية؟
هل أحداث الماضي عشوائية،
ونحن كبشر نميل إلى تجميعها وتصفيفها لتبدو أن لها معنى؟
هل يسير التاريخ في دورات متكررة،
ونحو تكرار محتّم ليس بأيدينا أن نغيره؟
هل هناك قوة خارجية هي التي تحرك التاريخ، أم إن الإنسان هو الذي يرسم خارطة التقدُّم بيده؟
كلها أسئلة أظنها لاهوتية أيضًا وليست فلسفية فقط.

الشيء اللافت أن البحث عن مغزى التاريخ وغايته عادة ما تشتد وتيرته بعد أعقاب حوادث جسمية. فنجد أغسطينوس بعد سقوط روما يكتب عن "مدينة الله"، ابن خلدون يكتب بعد سقوط بغداد والخطر المغولي، والفيلسوف هيجل مع ظهور نابوليون بونابرت، حتى أنه قال عبارته الشهيرة: "بومة مينرفا (رمز الحكمة عند اليونان) لا تحلق إلا عند الغسق."

لكننا نجد أنه لا يوجد حدث أهم من مجيء المسيح؛ الحدث الذي قسم التاريخ إلى شطرين، وبالتالي نتوقع أن ينخرط كُتّاب في شرح مسيرة التاريخ في ضوء الحدث الأكبر الذي حدث. هؤلاء الكُتاب في هذه المرة هم ٤ من آباء الكنيسة: يوستين وترتليان، وإكليمندس السكندري وإيريناؤس.

هذا العمل مُترجم عن كتاب "بداية الفلسفة المسيحية" The Beginning of Christian Philosophy للكاتب د. إيريك أوزبورن، وهو أستاذ العهد الجديد وتاريخ الكنيسة الأولى بكلية Queen's College بجامعة ملبرون بأستراليا.

يقدّم د. إيريك نظرة فلسفية لمسألة التاريخ عند آباء الكنيسة، وبالرغم من أننا قد نختلف مع الكاتب، أو مع الآباء الأربعة السابقين،[1] في بعض المسائل، لكننا نستفيد من الطرح المقدم في قضية صعبة ومعقدة مثل فلسفة التاريخ، وفي نفس الوقت نحاول فتح نافذة على المسيحية في قرونها الأولى وكيف كانت تنظر إلى العالم والتاريخ في ضوء ما حققه المسيح بحياته وتجسده وقيامته وصعوده والوعد بمجيئه الثاني.

---

[1] بشكل عام يؤخذ على يوستين وإيريناؤس اعتقادهم في الملك الألفي الحرفي، بينما يؤخذ على ترتليان أنه اعتنق الهرطقة المونتانية في أواخر أيامه.

فلسفة التاريخ عند آباء الكنيسة

"التاريخُ هُراء"[1] هكذا ظنَّ عدد كبير من فلاسفة اليونان. لكنَّ قضية الاستمرارية والتواصل مع أحداث الماضي أهمية عند المسيحيين الأوئل. في نفس الوقت كانت بالنسبة للبعض مثل الغنوصيين أمرًا تافهًا. وللبعض الآخر مثل ماركيون كانت أمرًا رديئًا، ليست فقط هُراءً، بل هراءً رديئًا. بالنسبة للغنوصيين أقصى ما تقدمه أحداث الماضي انعكاسٌ للحقيقة الإلهية، لأنه لا شيء يحدث خارج الله. أمّا بالنسبة لماركيون، كان الماضي يحكي عن إله آخر، وبالتالي مهما قال هذا الإله فهو خطأ. في حين، يوستين ومَن جاءوا بعده، فقد أحبوا قصة الماضي، وأحبوا الحديث عنها، وأحبوا استيعابها وفهمها. وكانوا شغوفين بالماضي مقارنة بقرائهم اليوم. فنجد أن يوستين يملأ صفحة بعد الأخرى بشواهد كثيرة جدًا من العهد القديم، هذه الشواهد لها معنى خاص بيسوع المسيح أو يضفي يسوع المسيح عليها معنىً جديدًا.

عند الآباء المدافعين ينشأ هذا الاهتمام بالتاريخ كأية قضية

---

[1] تُنسب عبارة "التاريخ هراء" History is bunk إلى هنري فورد، مؤسس شركة فورد العالمية لصناعة السيارات. لكن هناك خلافًا حول ما كان يقصده بالضبط بهذه العبارة، وربما كان يقصد عدم التركيز كثيرًا في الماضي والتركيز أكثر في الحاضر فهو أنفع لنا. لكنَّ هذه المقولة تنطبق على الكثير من الفلاسفة اليونان والرومان في نظرتهم للتاريخ. المنظور اليوناني الهلليني يرى أن التاريخ يعيد نفسه في دورات متكررة بلا جهة وصول وبلا معنى عام. (المترجم)

أخرى كرد على اعتراض من الآخرين أو تنفيذ لادّعاء ما. هل يحق للمسيحيين أن يدعوا أمورًا غير عادية عن معرفتهم بالله؟ وإن كان لديهم الحق، هل كانوا يظنون أنه لا يوجد شيء صحيح قيل قبلهم؟ لقد استخدموا الأسفار المقدسة اليهودية، لكنهم لم يحفظوا ناموس الله الذي تحدث في هذه الأسفار. على الأقل كان ماركيون والغنوصيون متسقين مع ذواتهم؛ فهم لا يدعون أن الله العلي أو الملء (البليروما) الإلهي له أية علاقة بإله العهد القديم!

يطرح كاتب الرسالة إلى ديوجنيتس الإشكالية في أبسط أشكالها: لماذا جاء الإنجيل متأخرًا جدًا؟[٣] ولماذا تأخر الله كل هذا التأخير ليعطي ما كان عليه أن يعطيه؟ بالنسبة لليونانيين واليهود، الصحيح هو القديم، والخطأ هو الجديد. أي شيء يقف أمام اختبار الزمن هو صحيح. لكنّ المسيحيين جاءوا متأخرين. كانت إشكالية المسيحيين تتلخص في الآتي: كيف عساهم وقد وصلوا متأخرين أن يجدوا مكانًا في خطة الله الذي يملك على التاريخ والعالم كله؟ وكانت إجابتهم أن المسيح أعطى معنىً للتاريخ بأن أعطى له خطة ومحور ارتكاز، ومِن ثم لم يصبح التاريخ مجرد انعكاس للحقائق الإلهية مفتقرًا للقصد

---

[٣] في الفصل الأول من الرسالة إلى ديوجنيتس، يقول كاتبها: "لماذا لم يظهر هذا الشعب الجديد، بل قُل هذا السلوك الجديد إلا في هذه الأيام فقط، وليس في الماضي؟"

والغاية، وكذلك لا يسير في دورات متكررة.

بالنسبة للمسيحيين تكمن أهمية المسيح في أنه أعطاهم القدرة على فهم الماضي ومواجهة المستقبل. عندما كانوا يتحدثون عن التاريخ، كانوا يتحدثون على خطة إلهية أو تدبير إلهي ، أو عن أن كل شيء يتجمَّع أو ينجمع في المسيح. اتصلت الفكرتان معًا، لأنه لا شيء غير دور المسيح كنقطة ارتكاز للتاريخ يضمن له استمراريته. جزء من هذا اللغز نراه في رواية حديثة تحكي عن رجل خجول متحفظ نوعًا ما يقع في الحب، وفي هذه التجربة يرى نفسه قادرًا على التأقلم مع ماضيه ومستقبله لأول مرة:

"رأيتها الآن، فتاة، غريبة، ومع ذلك أكثر شخصًا مألوفًا في العالم.. فتاتي الإيطالية وفي نفس الوقت المرأة الأولى، غريبة مثل حواء أمام آدم الذي يترنح من سباته، قلتُ: هذا أمر غريب، بالكاد أعرفكِ، ومع ذلك أشعر الآن لأول مرة أن ماضيَّ يتصل فعليًا بمستقبلي".[4]

بإيجاز، السبب الأول في اهتمام المسيحيين بالتاريخ هو هذا الاعتراض: "لماذا متأخرٌ جدًا؟" السبب الثاني هو أنهم وجدوا لأول مرة إحساسًا بالاتصال بين الماضي والمستقبل، من خلال

[4] Murdoch, *The Italian Girl*, (Penguin Books, 1967), pp. 170f.

انجماع كل شيء في المسيح. ثالثًا، كتطور للفكرة السابقة، رأوا أنفسهم متحدين بالمسيح، وفيه أصبح الماضي والمستقبل ينتميان لهم (حاشية عن بذرة اللوغوس عند يوستين). هذا ما كتبه بولس في الرسالة الأولى لكورنثوس، عندما كان الكورنثيون يقسمون مسيحيتهم قائلين: "نحن ننتمي لبولس"، "نحن ننتمي لصفا"، "نحن ننتمي لأبولس"، أجابهم بولس: "كُلُّ شَيْءٍ لَكُمْ. وَأَمَّا أَنْتُمْ فَلِلْمَسِيحِ، وَالْمَسِيحُ للهِ" (١كو: ٢٢- ٢٣). في المسيح دخلوا في ملء ما فعله الله لأجلهم. استطاع يوستين واكليمندس أن يقولا: "أي شيء قيل حسنًا في الماضي ينتمي إلينا نحن المسيحيين"[٥] لم يكن يوستين مفكرًا متفاخرًا ساذجًا، بل كان ببساطة يشرح معنى أن تؤمن بأن يسوع هو اللوغوس: في المسيح كُل الحق، وفي بساطة الصليب، وبتسليم الذات كاملاً لله، وهو ما يفعله المسيحيون بإيمان، فإنَّ كل الأشياء لهم كما أنَّ المسيح الذي هو رب الكل هو ربهم، والمسيح هو لله.[٦] وبالتالي فإن القدرة على رؤية اتصال التاريخ نبعت من شمولية كل الأشياء في المسيح ومن اكتشاف حياة جديدة فيه.

فكرة الاتصال والانجماع تحت رأس Recapitulation نجدها في رومية ٥: ١٢- ٢١، أفسس ١: ١٠، وفي رسالة أفسس لأغناطيوس

---

[٥] يوستين، الدفاع الثاني ١٣: ٤، اكليمندس، المتفرقات ١: ٧: ٣٧ إلخ.

[6] Cf. Käsemann, *Jesus Means Freedom*, pp. 78f.

الأنطاكي (٢٠: ١). يبدو أن إحساسًا بتملك التاريخ ساد على آسيا الصغرى وساد في اللاهوت المبكر من هذه المنطقة. يرى أغناطيوس أن التاريخ يصل إلى ذروته في المسيح الذي بدأ إنسانية جديدة. بشكل أو بآخر كانت اليهودية تترقب مجيء المسيح، لكن بكل الأشكال الممكنة بني يسوع على إخفاقات الماضي. لقد حوّل الموت إلى الحياة، والظلمة إلى نور. كانت قامته ومكانته الكونية واضحة في سلوك النجوم عند مولده عندما برز نجم بإشراق فائق عن النجوم الأخرى التي تجمعت حوله وسجدت له. يرى أغناطيوس عالمية أو جامعية المسيح في الزمان والمكان، وفي التاريخ والكوزمولوجيا.[٧]

هذه المجموعة من الإشكاليات يمكننا ترتيبها على النحو التالي:

١- هل التاريخ متصل أم منقطع؟ لماذا جاء يسوع متأخرًا جدًا؟

٢- هل يوجد حدثٌ فاصل يمكن أن نعتبره مركزًا للتاريخ؟

٣- أين نقف الآن في التاريخ؟

٤- هل الإنسان يحرز تقدمًا في مسار التاريخ؟

٥- كيف ستكون نهاية كل شيء؟[٨]

---

[٧] أغناطيوس، الرسالة إلى أفسس: ١٩.

[٨] سنتناول السؤالين الأول والثاني فقط في هذا العمل.

(١)

هل التاريخ متصل أم منقطع؟
لماذا جاء يسوع متأخرًا جدًا؟

يرد كلام يوستين عن التاريخ كرد واضح على أسئلة أثارها اليهود، وماركيون، والفلاسفة.[٩] كان يوستين مهتمًا بفكرة التطور في كلامه عن الناموس، بعكس كلامه عن اللوغوس. هناك ارتقاء من الناموس الموسوي غير الكامل إلى شريعة المسيح الكاملة. تضمنت شريعة موسى بعض الوصايا التي كانت موجودة ليس لسبب إلا لقساوة قلب الشعب [الحوار مع تريفو ٤٥: ٣]. كانت هذه طريقة الله في التعامل بمرونة مع شعب لديه هوس بالذبائح. وبدلاً من أن يجعلهم يذبحون للأوثان مثل العجل الذهبي، أمرهم الله بأن يقدموا ذبائح "كما لو كانت لاسمه" [الحوار ١٩: ٦]. كانت شريعة موسى خطوة على الطريق ومثالاً أو صورة للمسيح المنتظر. أمّا شريعة المسيح فهي أزلية وليست زمنية، تخص العالم كله وليس قومًا بعينه. وفي نفس الوقت هناك إله واحد فقط، هو الذي أعطى الناموس القديم وهو الذي جاء في المسيح.

"لقد قرأتُ يا تريفو، أنه ينبغي أن تأتي شريعة نهائية وعهدٌ

---

[٩] أنكر اليهود أية علاقة بين إله موسى وإله المسيحيين. بينما أكّد ماركيون إنكارهم هذا وشدّد على أن المسيحية شيء جديد تمامًا. في حين رفض الفلاسفة الإنجيل ليس لشيء إلا لأنه جديد.

يفوق الكل، ينبغي أن يحفظه كل الناس إذا أرادوا أن يسعوا للحصول على الميراث الإلهي. وأن الناموس الذي أُعطي على حوريب هو الآن قديم ويخصكم (اليهود) فقط. لكنَّ هذه الشريعة لكل الناس بالإطلاق. والقانون الذي يصدر بعد قانون سابق يلغي القانون السابق، والعهد الذي يتبع آخر يفوق العهد الذي سبقه. المسيحُ أُعطي لنا - شريعة أزلية ونهائية، وعهد صادق، بعده لا تكون أية شريعة، أو فريضة، أو وصية." [الحوار ١١: ٢].

هنا نجد وحدة في العمل الإلهي في التاريخ. الزمن يلعب دورًا. ما كان صالحًا في الماضي الآن غير صالح على الإطلاق. ومع ذلك المقابلة هنا بين الصورة والحقيقة. "ولأننا نحن، الذين جئنا إلى الله بواسطة هذا المسيّا المصلوب، إسرائيل الروحي الحقيقي، فرع (جذع) يهوذا، ويعقوب، وإسحق، وإبراهيم" [الحوار ١١: ٥].

تحدثنا من قبل عن كلام يوستين عن الكلمة التي وضِعت بذورها في قلوب الناس. كل إنسان حصل على بذرة من الكلمة، وكثيرون ممن جاءوا قبل المسيح عاشوا *meta logou* أي مع اللوغوس. لكن في المسيح جاء كُل الكلمة، وهذا الكُل يختلف عن الجزء اختلاف الحقيقة عن الصورة.

ظهور الكلمة للأنبياء والآباء البطاركة هو جزء من التاريخ

ولكنه لا يرقَى ليشكّل موضوعًا لأي تطور حقيقي.[10] كان على يوستين أن يثبت نقطة مختلفة تمامًا بشأن ظهورات الله في العهد القديم. ظهورات الله في العهد القديم أساس للتعددية في الجوهر الإلهي. لذا قال الله "لنخلق" بصيغة جمع متعمدة. ولكن في نفس الوقت يتضح تمامًا أن الله الآب لا يستطيع أن يترك كل شيء وينزل إلى الأرض ليفتقد الإنسان. عندما ظهر إلى شعبه، ظهر في ابنه أو كلمته. هذا الابن هو ابن الله بشكل فائق ومتفرد [الدفاع الأول ٢٣: ٣]. هو المولود من الآب قبل كل المخلوقات [الدفاع ١٠٠: ٢]. وتجسده هو الأكثر تصديقًا لأنه ظهر على الأرض قبلاً. "إذا كنا نعرف أن الله ظهر بأشكال متنوعة لإبراهيم وإسحاق وموسى، فكيف نتحير ولا نقدر أن نؤمن أنه وفقًا لإرادة الآب يُمكن أن يُولد كإنسان من عذراء؟" [الحوار ٧٥: ٤].

بالرغم من العرض الموجز ليوستين، لكنه تكلم ثلاث مرات عن التاريخ أو خطة الخلاص. في المرة الأولى فقط يوجد تطور أو ارتقاء - الناموس يمثل نموًا تدريجيًا من موسى وحتى الاكتمال في المسيح. الكلام عن بذور اللوغوس يشير إلى مرحلتين: اللوغوس الجزئي في كل الناس، الذي قبِله وأطاعه المشرعون

[10] Cf. De Lubac on the absence of the modern concept of history in both Irenaeus and Origen: Histoire et esprit (Paris, 1950), p. 248: 'L' "évolutionisme", de l' un, comme le symbolism de l' autre, est avant tout affaire de doctrine.'

والفلاسفة، واللوغوس الكامل الذي يمثّله المسيح المتجسِّد. ومع ذلك حتى هذا التقسيم ينقسم هو الآخر عند التعرض إلى الظهورات الإلهية في العهد القديم: لأن ابن الله الوحيد، اللوغوس الإلهي، ساعد في الخلق وظهر للآباء الأولين. وبالرغم من وجود كلام آخر عن التاريخ عند يوستين، فإن كل ما يمكن استخلاصه يتمثل في أن يوستين لديه إحساس بتحرك الله عبر التاريخ؛ فالله يعمل في التاريخ بأشكال شتى. وآراء يوستين المتنوعة تعتمد على اعتراض معين يحاول تفنيده. وجهة النظر الأولى تجيب على اعتراضات عند اليهود وأتباع ماركيون والفلاسفة، بينما وجهة النظر الثانية تجيب على اعتراض الفلاسفة، أما وجهة النظر الثالثة تجيب على اعتراض اليهود. والعنصر المشترك الوحيد يتمثل في نقطة مرجعية مركزية في اللوغوس المتجسّد.

الأفكار الجزئية وغير المكتملة عند يوستين نراها مُفصَّلة على نطاق أوسع عند إيريناؤس، بحيث أن التلميحات والأفكار غير المتطوّرة يتوسع فيها إيريناؤس بحماس شديد. يوجد لدى إيريناؤس وعي عميق بعمل الله الفعّال في التاريخ، وفي الخطة الإلهية، التي تُنفَّذ بتفاصيل وتفصيلات تفوق إدراك البشر. لماذا كان متأخرًا؟ لأن البشر بحسب طبائعهم يختلفون في استجابتهم نحو الله. لماذا كان متأخرًا جدًا؟ لأن الله صبور، ومتأنٍّ، وللكل،

ولأن الله يستخدم الزمن ليحقق مقاصده. هذه الأفكار تم التلميح لها عند يوستين وأغناطيوس، لكنها لم تتطور أبدًا. أمّا إيريناؤس فيأخذ الملمح الدفاعي ويحوله إلى ميزة إيجابية. لو لم يستغرق الخلاص وقتًا طويلاً حتى يأتي، ما كان للبشر أن يروه في مداه الكوني (الكوزمولوجي) في الزمان والمكان.

يوجد إله واحد، فوق كل زمان ومكان، يستخدم الزمان بحكمة وكذلك المكان. فعل إيريناؤس مع الزمن ما فعلته رواية الخلق مع المكان. فقد نسبه كله لله، وبيَّن كيف أنه له معنى في كل مرة يُفحص فيه. ليس من الصعب أن نربط بين الرؤية الجامعة لإيريناؤس مع بيئته. نعم، جاء إيريناؤس من آسيا الصغرى حيث توجد أهمية لهذه الأمور هناك. لكنه عاش في ليون، وكان أمام عينيه أحد أكبر المناظر الطبيعية في العالم. إلى الشرق وقفت جبال الألب عاليةً، إذ يمكن مشاهدتها في وضح النهار، ومنها يتدفق نهر الرون Rhône. ومن الجبال إلى الشمال يسير نهر الصون Saône. وفي أسفل التل المنحدر الذي يقف هناك، وهذان النهران العظيمان يلتقيان معًا ويتدفقان مائتي ميلٍ إضافية حتى يصلا إلى البحر. مِن هذا التل وحوله تولدت الأفكار المطولة لإيريناؤس عن التدبير (الإيكونوميا). ما كان سهلاً أن يجد مكانًا أفضل من هذا. هذه الإشارة إلى الظروف الحياتية *Sitz im Leben*، قد تؤكد بشكل غير متوقع النظام السياسي لبلاد الغال

وموقع ليون في المركز. "كل مسارات الخدمة العامة الرومانية في هذه المنطقة العظيمة تنفرج عند لوغدنوم (الاسم القديم لليون) ثم تتجمع بعد ذلك في ذلك المركز".[11] إلى أي مدى قد يتأثر اللاهوتيون، مثل الشعراء، بالطبيعة حولهم،[12] هذا أمر لا يمكن الجزم به. لكن القارئ الغافل فقط هو مَن لا يتحسس أفريقيا في ترتليان ومصر في إكليمندس.[13] الأمر أصعب كثيرًا عن يوستين؛ لأنه كان منعزلاً في مستعمرة عسكرية في نابلس، كان يحتاج إلى شاطئ كمكان متسع لحواره مع تريفو، ولم يكن في أى وقت مطمئنًا للحكومة الرومانية عنده.[14]

بالنسبة لإيريناؤس، خطة الله متصلة، فآدم لم يترك أبدًا يدي الله [ضد الهرطقات ٥: ١: ٣]. لم يوجد توقف في عمل الله. يوجد إله واحد، الآب، المنشئ، البارئ، الخالق، الذي خلق كل شيء في السموات والأرض. جبل الإنسان، وأنقذ نوحًا، وأرشد إبراهيم وإسحق ويعقوب، وتحدث من خلال الناموس والأنبياء، وأعلن ذاته في المسيح، وأخبر عنه الرسل، وآمنت به الكنيسة. هو

---

[11] James S. Reid, *The Municipalities of the Roman Empire*, Cambridge, 1913, p. 179.

[12] حول العلاقة ما بين الكتاب الرومان وبين البيئة المحيطة، راجع: Gilbert Highet, *Poets in a landscape*, Pelican Books, 1959.

[13] لقد ذهب ترتليان إلى الحد الذي زعم فيه أنه في الشمال حيث البرودة الشديدة، تصبح النفس متيبسة وخاملة وعاجزة عن التفكير. [عن النفس ٢٥].

[14] توجُّس يوستين من بيئته تأكد في النهاية باستشهاده.

إله واحد، أبو الرب يسوع المسيح، الذي ظهر في الابن الذي هو كلمته [ضد الهرطقات ١: ٤٧: ٢]. كل من أسفار العهدين القديم والجديد تشيران إلى الله الواحد الوحيد، الذي وعد على يد أنبيائه، وأرسل سابقه يوحنا، وأتم خلاصه في الكلمة المتجسّد [ضد الهرطقات ٣: ٩: ١].

خطة الله عادلة (بارة). وبِرُّ الله أساس كلا العهدين. قد يظهر هذا البر في أشكال مختلفة لكنه نفس البر الإلهي الدائم [ضد الهرطقات ٤: ٤٤: ١]. خطة الله منطقية. مثل المهندس العظيم رسم الله خطة للخلاص. فقد اختار الأباء البطاركة ليخلصوا، وأعد شعبه ليتبعوه. أرسل الأنبياء حتى يتعلم الناس أن يقبلوا روحه وليتحدثوا معه. في البرية أعطى شريعة كانت ملائمة للمكان ولحالة الشعب. ومَن التجأ إليه نالوا ميراثه. "هناك، بطرق متنوعة، هيأ الجنس البشري ليوافق خلاصه" [ضد الهرطقات ٤: ٢٥: ٢]. دائمًا هناك سبب لما يفعله الله. أعطى الختان، ليس لتكميل البر، ولكن ليجعل نسل إبراهيم مميزًا [ضد الهرطقات ٤: ٢٧: ١]. حتى أورشليم بُنيت وهُجرت بناءً على أسباب منطقية: الناموس بدأ بموسى وانتهى بيوحنا. وأورشليم بدأت بداود وانتهت بالعهد الجديد. "لأن الله يفعل كل شيء بقياس وترتيب. لا شيء غير مقدّر عنده لأنه لا شيء بلا ترتيب." [ضد الهرطقات ٤: ٦]. المنطق الإلهي وخطته دائمًا في حالة ارتباط مع الزمن. فما هو صحيح

في مرحلة معينة يصبح خطأ في مرحلة أخرى؛ لكن يبقى نفس الإله الذي يعمل بعدل وبمنطق في كل الأزمان. هذا الإله خلق أشياءً فانية للإنسان، ومن خلال الزمن أحضر الإنسان إلى تمام النضج وثمرة الخلود.

خطة الله خطة عملية. في عُرس قانا الخليل لم يرفض الرب الخمر التي خلقها الله في الكرم. كانت خمرًا جيدة، لكن الخمر الجديدة التي خلقها المسيح من الماء كانت أفضل [ضد الهرطقات ٣: ١١: ٩]. يستخدم إيريناؤس صورة الخلق بشكل مستمر لوصف معاملات الله. فهو مثلاً عندما يدافع عن قصد إلهي زمني لأورشليم أو تفسيره فهو يشير إلى الهلاك في مسار الطبيعة. يأتي وقت عندما تُجمع الحنطة ويُطرح القش، وعندما تُقلَّم الأغصان من أجل العناقيد. الطبيعة تستأنف طرق الله. عندما نضجت ثمرة الحرية في المسيح وعندما تشتت مَن يحملون الثمار من أورشليم، حينئذٍ كان لائقًا أن تُهجر أورشليم [ضد الهرطقات ٤: ٥].

خطة الله تستمر حتى الحاضر، بالرغم من أنها وصلت إلى غايتها في المسيح وليس هناك المزيد ليُقدّم. العهود مع آدم ونوح وموسى جُمعت في العهد الرابع والأخير مع المسيح [ضد الهرطقات ٣: ١١: ١١]. ولكن لأن هذا العهد الأخير يجعل الإنسان جديدًا ويمنحه بداية جديدة، فإن خطة الله مستمرة في تعاليم الرسل، التي تشير إلى الله الواحد الذي أعطى أربعة عهود، والله الذي

خلق كل الأشياء، والذي هو أبو المسيح، وإله المجد [ضد الهرطقات ٣: ١٢: ١٤].

عاش الرسل مثلما علّموا، بل حفظوا ناموس موسى للتأكيد على وحدانية الله [ضد الهرطقات ٣: ١٢: ٩]. كان إيمان إبراهيم هو نفسه مثل إيماننا ونحن مثله نتطلع إلى المستقبل حين يتم وعد الله، ونحن نرى ملكوت الله بالإيمان [ضد الهرطقات ٤: ٣٥]. الكنيسة الآن تحصد الكلمة التي وَضَع بذورها الأنبياء والآباء الأولون عن المسيح [ضد الهرطقات ٤: ٣٩]. لهذا السبب فإن رسالة الرسل تُصدِّق عليها الأسفار المقدسة، لأنهم كانوا أصحاب رؤية صحيحة قبل أن يبدأ الهراطقة بفترة طويلة في نشر أخطائهم [ضد الهراطقة ٣: ٢٤: ٢].

خطة الله مهتمة بقدرة شعبه على الفهم وعلاقتهم المباشرة معه. في الأيام الأولى كُتب ناموسه على قلوبهم. لكن في مصر عندما فقدوا بره ومحبته، أعلن ذاته كصوت، وقادهم للخروج من مصر ليصبحوا تلاميذه وتابعيه [ضد الهرطقات ٤: ٢٧: ٣]. كان إرميا يذكّر الشعب بأن الله لم يخرجهم من مصر ليقدموا ذبائح وإنما ليسمعوا صوته [ضد الهرطقات ٤: ٢٩: ٣]. وصف الناموس قرابين وذبائح كرموز لأمور سماوية. ولأن الأرض والسماء خلقتا بيد الإله نفسه، فمن الصحيح أن تُوجَّه رؤية الإنسان من الواحدة إلى الأخرى [ضد الهرطقات ٤: ٣٢]. رأى الأنبياء أسرارًا

وخططًا، ولكنهم لم يروا وجه الله. الصوت الهادئ الخفيف الذي تحدث إلى إيليا كان يشير إلى الإنسان الذي سيأتي في وداعة ولطف وهدوء، لا يقصف قصبة مرضوضة ولا يطفئ فتيلاً مدخنًا. من المؤكد أن إيليا وحزقيال شاهدا رؤى عن السماء، لكنهما لم يرا الله في أي وقت. رأوا رموزًا وانعكاسات عن مجده ونبوات عن أمور آتية. رأوا الخطة ولم يروا نهايتها. إشراق مجد الآب جاء فقط في ابنه الوحيد، في كلمته الذي تجسّد [ضد الهرطقات ٤: ٣٤: ٩، ١٠]. خطة الله تشير إلى أناة الله، الله الذي يكيّف ذاته مع الإنسان، والإنسان مع نفسه، بينما يعمل برفق من خلال عنايته.[١٥] كان الإنسان طفلاً محتاجًا أن يتعلم ببطء،[١٦] ويدا الله عملتا بمهارة مبدعة من آدم فصاعدًا، وهي تشكّل وترشد.

خطة الله جامعة. مجمل الحياة البشرية قد تشكلت بواسطة الله، الذي لم يقصر في شيء. عاش يسوع في مراحل حياتية مختلفة بحيث أنه لا توجد مرحلة في عمر الإنسان تبقى بعيدة عن

---

[15] K. Prümm, 'Göttliche Planung und menschliche Entwicklung nach Irenaus, Adversus Haereses, 11', Schol., 13 (1938), 364: 'Irenäus ist der Theologe der Langmut, der Anpassung Gottes, der Theologie der sanften Wege der Vorsehung'.

[16] E. 12. Cf. von Balthasar, Herrlichkeit, vol. 2, 'einmal, dass der Mensch sich als ein Kind benimmt und erst langsam, durch Erfahrung, klug wird', p. 78.

تلامس الله الكلمة [ضد الهرطقات ٢: ٣٣]. في التجسُّد أصبح يسوع وسيطًا بين الله والإنسان. وقبل هذا الحدث، وفي الحدث نفسه، أصبح الإنسان مهيئًا لقبول الله، وأصبح الله مهيئًا ليسكن في الإنسان [ضد الهرطقات ٣: ٢١: ٢]. ومع ذلك أهمل الهراطقة خطة الله؛ إذ ادعى ماركيون أن الله لم يأتِ إلى خاصته ولكنه جاء للغرباء [ضد الهراطقة ٣: ١١: ٧]. لكنّ الله الذي خلق العالم وعمل دائمًا لصالح الإنسان كان ولا يزال موجودًا مع خليقته [ضد الهراطقة ٥: ٢٩: ١؛ ٣: ١٢: ١٤؛ ٥: ١٦: ١]. وضع الغنوصيون التدبير الإلهي داخل الملء (البليروما)، بينما إيريناؤس وضعه وثبَّته في التاريخ.[17] وحدة الخطة الإلهية تشير إلى وحدة غاية خلاص الإنسان من خلال عناية لم يستطع الغنوصيون رؤيتها.[18] وفيما يلي الدفاع الأخير في حجة إيريناؤس. يتحدث الهراطقة عن تدبير إلهي داخلي (من مجموع ١٢٠ موضع وردت فيه كلمة "إيكونوميا" عند إيريناؤس، تنطبق الكلمة ٣٣ مرة على العقيدة الغنوصية).[19] لكن إيريناؤس يرى تدبيرًا إلهيًا يختص بالتاريخ البشري ويتجاوز أي شيء قد يزعمه الغنوصيون.

---

[17] Bengsch, *Heilsgeschichte und Heilswissen*, p. 28. R. A. Markus, Pleroma and Fulfilment. The significance of history in St. Irenaeus' opposition to Gnosticism', VigChr. 8 (1954), 2i6ff.

[18] Prümm, 'Göttliche Planung', pp. 356-9.

[19] D' Alés, 'Le mot "oikonomia" dans la langue théologique de saint Irénée', REG, 32 (1919), 6.

ومِن ثم فإن إيريناؤس، في استجابته للتهديد الغنوصي، يقدّم أهم فكر لاهوتي شامل عن التاريخ في الفكر المسيحي المبكر. ولا يضاهيه في ذلك إلا "مدينة الله" لأغسطينوس. حسب لاهوت العهد القديم، الذي يتطلع إلى الخلف إلى بداية الخلق، وإلى الأمام إلى الشيء الجديد الذي سيفعله الله، قد نجد مثل هذه الرؤية للتاريخ. ومع ذلك بالنسبة لإيريناؤس، كما ليوستين، هذه الرؤية اكتسبت أقصى أهمية لها كبرهان للكرازة الرسولية وتطلبت المقابلة الأفلاطونية بين الصورة والحقيقة. الوسيلة الأفضل في الفهم هو سقف مايكل أنجلو في كنيسة سيستينا الذي يعرض الأحداث العظمى الأولى للتاريخ الخلاصي، تحت الهيمنة المركزية للمسيح في الدينونة والرحمة.

تتكرر الكثير من الأفكار ذاتها عند ترتليان؛ فهو يجد الله في التاريخ بينما يعمل في الطبيعة وفي النفس.[20] في كتابه "ضد ماركيون" يصر على وجود وحدة وتماسك في التاريخ [ضد ماركيون ٣: ٢]. في نمطه، ظلمة خطية الإنسان تتداخل مع بر الله ومحبته الخلاصية. والغلبة تبقى مع بر الله [ضد ماركيون ٢: ٢٩]. ترتليان يتبع إيريناؤس أيضًا في أهمية القديم. كتابات الأنبياء قديمة بقدر قِدم كتابات فلاسفة ومشرعي روما [الدفاع ١٩]. إن الحق في

---

[20] G. Leonhardi, *Die apologetischen Grundgedanken Tertullians, Ein Beitrag zur Apologie des Christenthums in der kirchlichen Gegenwart* (Leipzig, 1882), p. 6.

أي عقيدة يتأكد بقدمه وبقائه [ضد براكسياس ٢]؛[٢١] بينما الهرطقات تتميز بالاستحداث (أو الابتداع) [ضد هرموجينيس ١].

لكنّ إحساس ترتليان تجاه التاريخ مختلف: الامتداد العريض للتاريخ أقل أهمية بالنسبة له مقارنة بأحداث محددة. لو كان ترتليان في زماننا لقام بتأليف ملاحم كتابية أو سيناريوهات لمسلسلات عن الكتاب المقدس بها حلقات مفعمة بالحركة بدون أن يضطر للتكرار. فهو يصف العمل الإلهي الذي لا يتوقف عبر التاريخ؛ فالله دائمًا يفعل شيئًا، فهو يرسل طوفانًا أو نارًا في دينونة، أو رُسلاً ليعلنوا حقه [الدفاع ١٨]. ودائمًا يحدث شيء عند ترتليان: اليهود الذين تمتعوا يومًا بنعمة الله وازدهروا، ثم يسقطون بالكبرياء والآن هم مشتتون في كل العالم، ومحرمون من أي ملك أرضي أو سماوي.

ترتليان دائمًا ما يكون بطيئًا ومترددًا في التوليف بين الأفكار. وفي مقابل بولس يرى أن الأمور التي في نظر البعض تافهة وساذجة وغير معقولة في الناموس تمثل برهانًا على أنه من الله الذي اختار أمور الجُهال هذه ليُفحم بها الحكماء [ضد

---

[٢١] يحتكم ترتليان هنا إلى قدمية قاعدة الإيمان (rule of faith) بالنسبة لظهور أي هرطقة، ويصف براكسياس بأنه "مدعي الأمس" ويقول: "لأن ما كان من البدء هو الحق، وما قد جاء متأخرًا في الزمان هو الإفك." (ورد في أمجد رفعت، ترتليانوس الأفريقي، إصدار مدرسة الأسكندرية، ص. ٨٥).

ماركيون ٥: ٦]. ومع ذلك كلما زادت خصوصية روايته للتاريخ، زادت الطبيعة الدرامية لتوحيد هذه الرؤية تحت مظلة رب واحد. تحرُّك التدبير نحو الاكتمال في المسيح، الذي وحده بمقدوره أن يحقق هذا الاكتمال. الرسالة إلى اللاودكيين التي حسبما يقول ترتليان قد أُرسلت خطأ إلى أهل أفسس، تخبر عن سر الله، والتدبير الذي لا يعرفه أحد سوى الله، وإتمام كل شيء في المسيح [ضد ماركيون ٥: ١٧].

أمّا إكليمندس فيذهب إلى النقيض تمامًا من ترتليان. فالله له أفق متسع، وكل شيء يتحرك نحو هذا الأفق وفقًا لخطته. منذ بداية التاريخ، وقصد الله لم يتغير أبدًا. وشغله الشاغل أن يخلص قطيع البشر: "لأجل هذه الغاية أرسل الله الصالحُ الراعي الصالح" [حض لليونانيين ١١: ١١٦]. ثم يضيف إكليمندس عنصرًا جديدًا: فهو يصرُّ على أن التمهيد للإنجيل تحقق بين اليونانيين وكذلك اليهود، وكانت الفلسفة لليونانيين مثلما كان الناموس للعبرانيين [المتفرقات ١: ٥: ٢٨]. الله هو الآب الذي منذ البداية قد غرس البذرة الواحدة لكلمته. والأزمنة المختلفة والأماكن المختلفة تخلق معتقدات مختلفة [المتفرقات ١: ٧: ٣٧]. عندما عبد الفلاسفة اليونانيون العناصر المادية، كانوا عبيدًا أو أطفالاً. "الفلاسفة أطفال ما لم يصيروا رجالاً في المسيح" [المتفرقات ١: ١١: ٥٣]. يزعم إكليمندس أن اليونانيين قد سرقوا الحق الذي كان

عندهم، أو حصلوا عليه من أحد الملائكة الذي سرقه ثم نقله إليهم [المتفرقات ١: ١٧: ٨١]. هذا تفسير مغاير، لا يتفق مع تفسير سابق. يخلق إكليمندس نوعًا من التماسك في رؤيته للفلسفة كمثال واضح على طريقة الله في تحويل خطأ الإنسان إلى شيء صالح.

يتحرك تاريخ الخلاص خلال طورين قبل أن يصل إلى المسيح. جِدَّة الإنجيل تتفوق على كل من اليونانيين واليهود.

"صنع عهدًا جديدًا معنا، لأن كل ما ينتمي لليونانيين واليهود هو قديم. لكن نحن مَن نعبده بشكل جديد، في شكل ثالث مسيحيون... الله الواحد الوحيد كان معروفًا لدى اليونانيين بطريقة أممية، ولدى اليهود بطريقة يهودية، ولدينا بطريقة جديدة روحية".

نفس الإله درّب البشر تحت ثلاثة عهود بكلمته. لا توجد ثلاث طبائع للبشر (كما يدّعي بعض الهراطقة)، لكن توجد ثلاثة عهود متتابعة عمل الله من خلالها [المتفرقات ٦: ٥: ٤١- إلخ].

ولكي يضم إكليمندس اليونانيين في التاريخ الخلاصي المتسع، وجد من الضروري أن يصرّ أكثر على السلطان الإلهي على التاريخ. أعطى الله الناموس للعبرانيين، والفلسفة لليونانيين، ونظّم الكون ليسهل خلاص الإنسان.

"إذن لم يوجد شيء يعوق بأي شكل قدرة حرية الإنسان على الاختيار التي جعلها الله أداة توصله إلى الفضيلة وأظهرها هكذا. وبالتالي بطريقة أو بأخرى، حتى هؤلاء الذين لا يمكنهم إلا أن يروا بشكل خافت، يظهر الله الواحد الوحيد الحقيقي الصالح والقدير، من الأزل وإلى الأبد يخلص بالابن.... مهما كان سبب الشر" [المتفرقات ٧: ٢: ١٢].

لماذا كان متأخرًا جدًا؟ هل التاريخ متصل أم متقطع؟ سار إيريناؤس على درب الأفكار الموجزة ليوستين مع شرح مسهب للتاريخ الخلاصي. أمّا ترتليان فيحافظ على الخصوصية والمفارقة، بينما إكليمندس فيسهب في فكرة الاتساع الكوني الشامل. في كل حالة، ولأسباب مختلفة، يوجد حجر أساس واحد، يمسك البناء معًا، هو يسوع المسيح، الحجر الذي كان قد رفضه البناؤون البشريون.

(٢)

هل يوجد حدثٌ فاصلٌ
يمكن أن نعتبره مركزًا للتاريخ؟

هل يمكن لحدث واحد أن يعمل على توحيد سلسلة كاملة من الأحداث؟ كانت هذه خبرة مشتركة لدى المسيحيين، لكنهم لم يجدوا سهولة في شرحها للآخرين بكلمات سهلة. الصعوبة لم تكمن في التحدث عنها- تحدث عنها إيريناؤس قليلاً- لكنَّ توضيحها أمر آخر.

توجد غوامض معتادة في كلام يوستين عن المكانة المتميزة للمسيح في خطة الله الخلاصية. ويبدو على الأرجح أنه لم يستخدم مصطلح "الانجماع تحت رأس" Recapitulation، ولكن الأهم من هذا، أنه لا شك في أن الملامح الأساسية لهذا المصطلح موجودة عنده. ملمح التكرار والتصحيح موجود في التوازي بين حواء ومريم:

"... صار إنسانًا من العذراء حتى كما أن العصيان بدأ من خلال الحية، بنفس الطريقة يزيل العصيان. لأن حواء، وهي عذراء عفيفة، عندما حبلت كلمة الحيّة (إبليس)، ولدت العصيان والموت، لكنَّ العذراء مريم قبلت الإيمان والبهجة عندما أخبرها الملاك جبرائيل بالأخبار السارة."

ثم يتبع ذلك ملمح المسيح المنتصر Christus Victor: "ومن خلالها ولدت، كما وضحنا، مَن تحدثت عنه الكثير من الكتب المقدسة، وبه أهلك الله كل من الحية والملائكة والبشر الذين تشبهوا بها لكنه جلب الخلاص من الموت لهؤلاء الذين يتوبون عن أعمالهم الشريرة ويؤمنون به." [الحوار ١٠٠: ٦].

يوجد كلام مشابه لهذا في مواضع أخرى. صار المسيح جسدًا، وولد من عذراء، ليهلك الحية، وليخزي الموت [الحوار ٤٥: ٤]. وكان موته انتصارًا على الموت [الدفاع الأول ٦٣: ٦]. بنفس الوضوح يوجد الملمح الميتافيزيقي بأن المسيح يمثل الكمال والشمولية لما كان بدونه جزئيًا ومشتقًا. فهو في الكل to logicon to holon.

فيما يتعلق باتصال التاريخ، وكذلك الربط الضروري بالانجماع الكلي. يقدّم إيريناؤس دلائل كثيرة ويوسع هذا المفهوم. من بين التصويرات الغنية لفكرة الانجماع في المسيح توجد مجموعتان من الموتيفات التي تتداخل باستمرار. من ناحية هناك موتيفات التاريخ، والميتافيزيقا، والفداء. الملمح التاريخي يضع متوازيات بين العهدين القديم والجديد، بين آدم والمسيح. والملمح الميتافيزيقي يرى في المسيح الشكل الكامل للبشرية والحقيقة المتوجة للكون. بينما العنصر الفدائي يخبر عن الانتصار على الشر الذي أُحرز بفضل طاعة المسيح. المجموعة الثانية من الموتيفات عن التكميل والتصحيح، حيث يتضمن

التكميل فكرة العالمية أو الجامعية بينما يتضمن التصحيح فكرة الاسترداد والتوحيد والاندماج والتمثيل. هذه المجموعة من الموتيفات يراها إيريناؤس "بر الله"، وقوة الله التى بيسوع، الإنسان البار، يبرر أيضًا.

عندما نضع مجموعتي الملامح معًا (التاريخ، الميتافيزيقا، الفداء، التكميل، التصحيح) تبدو الإمكانيات بلا حصر. الله يجمع كل الأشياء بإحضارها إلى ذروتها، إلى كمالها، وهذا يتضمن تصحيح ما كان خطأ داخلها، وما كان ناقصًا في حالتها الحالية. من الناحية التاريخية يُرى هذا كتطور كان الله فاعلاً فيه من بداية الخليقة، وعمله الأخير في عملية التطور هذه هو تكميل ما بدأه في آدم وتصحيح ما انحرف في آدم. يقدّم الله مفتاحًا تاريخيًا عن طريق تكرار، وتصحيح، شيء كان قد حدث سابقًا. عند النظر ميتافيزيقيًا لانجماع كل الأشياء، فإنه يشير إلى الخليقة ككل والإنسان بصفة خاصة على أنهما في حالة من النقص والخطية والفساد والموت. وانجماع كل الأشياء في المسيح يعني أن هذا النقص يُعوض، وهذه الخطية تُزال، وهذا الموت يُبطل. من ناحية الفداء يقابل المسيح المنتصر، كإنسان كامل، إبليس، الذي يجسّد الموت والخطية. وبغلبة المسيح يتحرر الإنسان من الشر، ويُنقل إلى ملكوت النور.

لم يترك آدم يدي الله في أي وقت. القصة بأكملها، بكل

تفاصيلها وتعقيداتها، تخص الإنسان والإنسان وحده. الكلمة الذي خلق الإنسان في البدء جاء في الأيام الأخيرة كإنسان قابلاً للألم، موحدًا نفسه مع عمل يديه. عندما صار إنسانًا، لم يتخلَّ عن وجوده الخاص، لكنه بدأ نسلاً جديدًا للبشر بحيث إن "ما فقدناه في آدم، لنكون حسب صورة الله ومثاله، نستعيده في المسيح يسوع". كانت الهزيمة الأولى للإنسان كارثية إلى الحد الذي أعجزه عن المقاومة مجددًا، لكن الكلمة جاء إلى أعماق هزيمة الإنسان في اتضاع إلهي وفي أعماق الموت الذي كان الإنسان قد جلبه. وبهذه الطريقة خَلُص الإنسان وتمت خطة الله [ضد الهرطقات ٣: ١٩: ١، ٢]. ومِن ثم فإن يسوع، آدم الثاني (يعود لوقا بنسبه إلى آدم الأول) قد جمع كل أجيال البشر في بشرية جديدة [ضد الهرطقات ٣: ٣٢].

الانجماع كامل ونهائي؛ فما جاء سابقًا كان دوره تمهيدًا دائمًا. حتى الناموس لم ينكر ابن الله بل أظهر أن الجُرح الذي سببته الحية يمكن شفاؤه بالإيمان في شخص الذي رُفع عن الأرض [ضد الهرطقات ٤: ٤: ٢]. لكن الآن الشريعة الجديدة التي تجلب الحرية هي أعظم من الناموس الذي جلب العبودية. شريعة تخص العالم كله، وليس أمة واحدة بعينها. لأن عمل الله كامل في المسيح ونحن نتطلع إلى مَن لا يعوزه شيء. يوجد نقصان من جانبنا، لأننا لم نصل بعد إلى ما هو كامل، لكننا نعرف أين

الكمال. "عندما يأتي الكامل لن نرى أبًا آخر لكن مَن نشتاق الآن لرؤيته. لن نبحث عن مسيح آخر او ابن آخر غير الذي ولد من العذراء مريم، الذي تألم، الذي نؤمن به والذي نحبه." [ضد الهرطقات ٤: ١٩: ١].

مجيء الكامل لا يعصف بما قد مضى. والفرائض الطبيعية للناموس أُعطيت قبل ناموس موسى، والآن تم توسيع ناموس موسى بواسطة البر الذي يتجاوز بر الكتبة والفريسيين. فلا يؤمن بالآب فقط بل بالابن أيضًا. ويتجاوز الوصف إلى الفعل، فلا يمثل مجرد قول، بل فعل أيضًا. أخذ يسوع الناموس ووسعه وعرّضه وأكمله. كل ما فعله إيجابي ولم يكن سلبيًا أبدًا. حرية أبناء الله أفضل من طاعة العبيد. وتوجَّه الإنسان نحو الحصول على المزيد من نعمة الله، وأن يحبه الله أكثر، وأن ينتقل من مجد إلى مجد في حضور الآب. الحرية لا تقطع الرابط بين الإنسان والله، بل يستبدله باتحاد أعمق من أي شيء [ضد الهرطقات ٤: ٢٤].

التكميل في الوحدة والجامعية. فهو عمل الله الواحد في عالم واحد وفي تاريخ واحد لخلاص البشرية الواحدة. لأن الكلمة قادر أن "يربط النهاية بالبداية، وأن يربط الإنسان بالله" [ضد الهرطقات ٤: ٣٤: ٤]. ولكي يخلص الجميع كان لابد أن ينزل إلى

الجحيم. يقول إرميا[٢٢] أنه لم ينسَ الذين رقدوا، لكنه ذهب إليهم لكيما يوحِّد عمل الخلاص في كل عصور البشر جميعًا [ضد الهرطقات ٤: ٣٦: ١]. كان هناك طريق واحد فقط يصل إلى البشر جميعًا، كان هذا عن طريق ألم الموت وأوجاعه [ضد الهرطقات ٤: ٥٥: ٣].

الجامعية لا يمكن أن تظل في الماضي، لأن العالم يستمر، والله عليه أن يتعامل مع هؤلاء الذين لم يشكلوا ماضيًا أو حاضرًا في زمن المسيح. لقد أعطى الرب كرمه لمجتمع جديد من الكرامين، هذا الكرم كان قد أُجرّ لتدبير موسى. الكرامون الجدد هم الكنيسة، التي لا تزال مستمرة، والمعاناة من أجل البر وتحمُّل الضيقات، قد تُضعف الكنيسة، لكن الكنيسة سرعان ما تزداد عددًا من جديد بسرعة [ضد الهرطقات ٤: ٥٨: ٢؛ ٤: ٥٤].

لقد رضى الهراطقة بهدف أدنى كثيرًا. في كل ما دعمه أتباع ماركيون من أفكار، فإن العلي كما يتصورونه قد أحرز الخلاص في بولس فقط وليس أحدًا آخر. ليس الله محدودًا هكذا في إمكانياته بحيث يكون له رسول واحد يفهم تدبير ابنه. كل

---

[٢٢] في [ضد الهرطقات ٣: ٢٢] ينسب إيريناؤس نفس النص لإشعياء. بينما يوستين في [الحوار ٧٢] ينسب نفس النص إلى إرميا ويتهم اليهود بأنهم حذفوه من أسفارهم المقدسة.

W. Bender, *Die Lehre über den Heiligen Geist bei Tertullian* (München, 1961), p. 73.

الأشياء أمسكت في المسيح، الذي هو إنسان منظور وقابل للألم، يجمع كل البشرية لنفسه، وهو رب السموات، والأعلى فوق الكائنات الروحية وغير المنظورة. وكرأس للكنيسة فهو يجذب كل شيء إلى نفسه [ضد الهرطقات ٣: ١٧: ٦].

الانتصار الكامل والخلاص الشامل تحققا عن طريق الصليب فقط. الطاعة والاتضاع أزالا نتائج عصيان الإنسان. الإنسان خُلق من الأرض العذراء، فعصى الله وخسر عطية الحياة. والإنسان الجديد وُلِد من عذراء، وأطاع الله وجاء بالكثيرين إلى البر والخلاص. عصيان الواحد أو إطاعة الواحد يؤثر على كثيرين [ضد الهرطقات ٣: ١٩: ٦]. الطاعة تجلب الحياة بدلاً من الموت، لكنها تُجلب بالاتضاع فقط. الله استخدم مريم مثلما استخدم الله التراب ليشكل نوعًا من البشرية [ضد الهرطقات ٣: ٣٠]. التراب يشير إلى الجسد في جوهره وألمه. والكلمة قَبِل جسدًا من مريم ليصير انسانًا وابنًا للانسان. وإن لم يصر كما نحن، لكانت آلامه بلا تأثير يُذكر، لكن بمشاركة جسد لحمنا، جمع كل عمل خليقته [ضد الهرطقات ٣: ٣١: ١]. الودعاء فقط يرثون الأرض. جسد يسوع ظهر بجوعه وتعبه ودموعه. بحيث كما بواسطة الدم والماء اللذين نبعا من جنبه، يستطيع بالمعاناة الجسدية فقط أن يخلِّص عمل يديه [ضد الهرطقات ٣: ٣٢: ٢].

خلاصه يتسم بالواقعية بينما يتحد بطبيعة الإنسان القديمة

ليحضره إلى الحياة والكمال والله [ضد الهرطقات ٥: ١: ٣]. جسده يثبت خلاص جسدنا، وحقيقة بشريته [ضد الهرطقات ٥: ١٤: ١]. من خلال حياته على الأرض عرف كيف كانت تعاني خليقته بسبب شر الإنسان. لذا فقد مارس كل أنواع الشفاء ليجلب الحياة إلى احتياجات الإنسان المتعددة [ضد الهرطقات ٥: ١٢: ٥]. كل تفاصيل أعماله أظهرت اهتمامه باحتياجات الإنسان المتنوعة. فقد شفى الأعمى بالطين وعلّمه عن مَن خلقه أولاً وأعطاه الحياة [ضد الهرطقات ٥: ١٥: ٣]. أشياء كثيرة ذكّرت الإنسان أن مخلصه هو خالقه.

كان قد نادى على الإنسان في المساء عندما تخفى، بينما نادى ثانية وبحث عن نسل آدم [ضد الهرطقات ٥: ١٥: ٤]. وبتعليقه على شجرة أشار إلى عصيان الشجرة حين انفصل الإنسان عن الله. خطأ حواء وعصيانها وخطيتها جعلها تهرب من الله بينما الأخبار السارة لمريم وطاعتها جعلتها تحمل الله. مكرُ الحية أطاحت به الحمامة الحسنة [ضد الهرطقات ٥: ١٩: ١].

بكل هذه الأفعال العجيبة للتواضع عاد الإنسان منتصرًا إلى الله. تألم الرب في يوم عصيان الإنسان، في اليوم السادس من الخليقة، اليوم الذي فيه خُلق الإنسان. في هذا اليوم استطاعت آلام الرب أن تُحضر البشر من الموت إلى حياة الخليقة الجديدة [ضد الهرطقات ٥: ٢٣: ٢]. فقط ابن الآب الذي هو الله والخالق كان

بإمكانه أن يجمع كل الأشياء [ضد الهرطقات ٥: ٢١: ٢]. فقط كإنسان مولود من امرأة كان بإمكانه أن يعكس الهزيمة التي بدأت بالمرأة ثم جلبت المرأة الحياة من خلال انتصار رجل [ضد الهرطقات ٥: ٢١: ١]. وبالتالي هُزم عدو الإنسان مثلما هُزمت الحية التي أسرت الإنسان في آدم وسُحقت وديست تحت الرجلين [ضد الهرطقات ٥: ٢١: ١]. ارجع الرب إلى الفردوس هؤلاء الذين أطاعوا نداءه. جمع في ذاته الأرضيات والسماويات. وحّد الإنسان بالروح القدس، وجعل الروح القدس يسكن في الإنسان. ومن خلال الروح القدس نحن نرى ونسمع ونتكلم [ضد الهرطقات ٥: ٢٠: ٢].

نرى مما سبق، أن ترتليان وإكليمندس ركّزا على جوانب مختلفة، إذ فضّل ترتليان التاريخ، ومَال إكليمندس إلى الميتافيزيقا. لكن كلاهما لم يتخلَّ عن العنصر الذي يميل إلى إغفاله. يرى ترتليان عمل المسيح في الانجماع الكلي مع تحريك النهاية إلى البداية والبداية إلى النهاية. هذا ما يعنيه أن يكون المسيح الألفا والأوميجا. كل إيكونوميا (تدبير) يصل به المسيح إلى غايته، وهذا في نفس الوقت يمثِّل استعادته إلى بدايته. "مثلما تتدحرج الألفا نحو الأوميجا، ثم تتدحرج الأوميجا رجوعًا إلى الألفا، هكذا هو يُظهر في ذاته الطريق من البداية إلى النهاية، ومن النهاية إلى البداية [الزيجة الواحدة ٥: ٢].

يدشن عمل المسيح بداية عصر جديد. لقد انطلق الإنجيل

وحطم المنظومة القديمة. لكن الروح القدس أكد إدانة ما ذُبح للأوثان والزنا والدم، وهذا العهد الأخير لا يمكن تغييره أبدًا [عن الاعتدال ١١: ٣]. النظام الجديد للتدبير المسيحي Christiana Disciplina يرجع تاريخه إلى حَدث المسيح. "لا أحد كامل قبل اكتشاف نظام الإيمان، لا أحد مسيحي قبل عودة المسيح إلى السماء، لا أحد مقدَّس قبل نزول الروح القدس من السماء ليحدد النظام ذاته" [عن الاعتدال ١١: ٣].

يستغل ترتليان عنصر المفارقة في الانجماع الكلي. الخليقة الجديدة تتحرك لمستوى أعلى. الإنسان الأول، مولود من الأرض العذراء، يتبعه إلى الإنسان الثاني، المولود من الجسد الذي لم يتناسل أبدًا بل حَلَّ عليه الله بالروح الواهب الحياة [عن جسد المسيح ١٧: ٣، ٤؛ ١٩: ١، ٢].[٢٣] "أيها المسيح حتى في جِدّتك أنت قديم!" [ضد ماركيون ٤: ٢١]. جِدَّة المسيح تغيِّر كل شيء من الجسداني إلى الروحاني [عن الصلاة ١]. صلاة العهد القديم عملت بنار، ووحوش، ومجاعة، لكن الصلاة المسيحية روحية وفاعلة

---

[٢٣] المسيح ولد من الآب كروح، ومن العذراء كإنسان. ما كان ممكنًا أن يكون له اب حسب الجسد؛ لأن ميلاده البشري هو ببساطة امتداد لميلاده من الآب [عن جسد المسيح ١٧: ٣].

W. Bender, *Die Lehre über den Heiligen Geist bei Tertullian* (Miinchen, 1961), p. 73.

أكثر، وتولّد صبرًا، وتمدد النعمة مع الفضيلة والإيمان بالمعرفة. لا يُغلب الله من شيء سوى الصلاة، لكن لا يمكن استخدامها للشر [عن الصلاة ٢٨]. يمكننا شرح تقابلات أخرى بين النظام القديم والجديد. آدم الأول تزوج مرة، لكن آدم الثاني رسم طريق البتولية الأسمى. لا يجدر بالمسيحيين أن يسقطوا تحت أقل من هذين المعيارين بالزواج ثانيةً [الزيجة الواحدة ١٧]. قبل النظام الإيماني الجديد لم يصل أحد إلى الكمال. قبل صعود المسيح إلى السماء وعطية الروح القدس لم يوجد مسيحيين ولا قديسيين [عن الاعتدال ١١]. لا يزال هناك أصوام وأعياد تُحفظ. ليست أصوام العهد القديم وأعياده بل العهد الجديد. الاحتفالات اليهودية يجب أن تُترك، وأوقات الاحتفال الجديدة تُحفظ [عن الصوم ١٤]. الفرق بين القديم والجديد نراه في طقس الختان. لقد أُعطي الختان كعلامة لإسرائيل، وتحقق الرمز في هؤلاء الذين يطيعون من القلب [في الاعتدال ٣].

لكن المفارقة تعتمد على الاتحاد وكذلك الاختلاف. أخفق ماركيون في أن يرى استمرارية عمل الله على أساس أن الله الواحد لا يمكنه إلا أن يفعل شيئًا واحدًا. لكن كيف للإله الثاني أن يكون أفضل من الإله الأول، عندما لا يفعل الثاني سوى استعادة ما خلقه الإله الأول؟ انتصار المسيح يعكس نتيجة المعركة الأولى بين الإنسان وإبليس. الله يسمح بالصراع أن

يحدث عمى أن تنجح البشرية فيما فشلت فيه سابقًا. يشارك ترتليان معاصريه، إيريناؤس وأكليمندس، أهمية النزول إلى الجحيم: لأن هذا النزول حقق للمسيح أن يموت فعلاً وجعل ممكنًا للأنبياء والآباء الأولين أن يشاركوا في إنجيله ونعمته [عن النفس ٥٥]. وبالتالي عند ترتليان بينما تكون توترات التاريخ دائمًا مذهلة، فإن تنوعها يعمل على إثبات عظمة ربوبية المسيح وسلطانه. لأن الرب الظافر الحقيقي هو مَن يستطيع أن يتحكم في مثل هذه المتناقضات الكبرى تحت سلطانه.

المنطق والاتحاد يسودان عند إكليمندس. الجانب التاريخي للإنجماع أقل أهمية من الجانب الميتافيزيقي أو الفدائي. كلامه عن اللوغوس كواحد وككثرة يتطلب نقاشًا منفصلاً. يكفي هنا أن نعرف كيف رأى إكليمندس العمل الجامع للمسيح. فإحساسه بالشمولية الميتافيزيقية والفدائية إحساسٌ مذهل، ورسالته بأنه في المسيح كل شيء تحقق رسالةٌ واثقة، مع وجود مساحة صغيرة للأسخاتولوجيا المستقبلية.

في نفس الوقت لا يفتقر التاريخ إلى الحركة. يبدأ كتاب "حض لليونانيين" وينتهي بانتصار المسيح. قوة الأغنية الجديدة خلقت بشرًا من الحجارة، وأرجعت الموتى إلى الحياة، ونظَّمت الكون كله في تناغم. حان الوقت لنسرع إلى الرب والمخلص الذي جاء خلاصه أولاً إلى العبرانيين في العليقة المشتعلة وعمود

السحاب [حض لليونانيين ١: ٤ إلخ، ٨]. حاول يوحنا المعمدان بغيرة أن يعد الناس للخلاص العظيم وميراث الملكوت في المسيح [حض لليونانيين ١: ١٠]. لأنه لا شيء أقل من هذا يمثل نتيجة انتصار المسيح: "الرب تنازل والبشر ارتفعوا. ومَن سقط من الفردوس يحصل، كمكافأة طاعة، على شيء أعظم من الفردوس، حتى السماء ذاتها" [حض لليونانيين ١١: ١١١]. جاء الوقت، وضرب البوق لجيش المسيح ليملك بالسلام على ملكوت السموات [حض لليونانيين ١١: ١١٦]. وهو نفسه ينادي على كل البشر ليعودوا في شبه الله لكل ما يستطيع الله أن يعطيهم الآن.

"لأني أرغب، واشتاق أن أمنحك هذه النعمة، مقدمًا إليك عطية الخلود الكاملة. وأنعم عليك بالعلم ومعرفة الله، ذاتي الكاملة. هذا هو أنا، وهذا ما يشاءه الله، هذه سيمفونية، هذا تناغم الآب.. أرغب في أن أستعيدك وفقًا للنموذج الأصلي، لعلك تصير مثلي." [حض لليونانيين ١٢: ١٢٠].

من اللائق الآن أن نصف المسيحي الصالح بصفته الإنسان الوحيد الغني والحكيم والقادر. فهو صورة الله؛ لأنه بيسوع المسيح بار، ومقدس، وحكيم. وبالتالي فإن كتاب "حض لليونانيين" ينتهي بإدعاء لا مثيل له بأنه في المسيح كل شيء صار مكتملاً الآن، وبالتالي فإن الحماس الواثق للعمل كله له أساس متين.

يعرِّف إكليمندس ما معنى أن هناك شيئًا ننتظره ولم يأتِ بعد. من ناحية مَن كانوا يومًا في الظلمة هم في نور الرب الآن، ولا توجد حالة وسطى بين الظلمة والنور. ومن ناحية أخرى، قيامة المؤمنين لم تحدث بعد، وقتها فقط سنصل إلى النهاية. ومع ذلك هذا ببساطة قبول ما وُعد به الآن، والوصول الذي يُنتظر بالفعل. "لأن الأبدية والزمن ليسا نفس الشيء، وكذلك المحاولة والنتيجة النهائية. لكن كلاهما يشيران إلى نفس الموضوع ويتعلقان بنفس الشخص." [المربي ١: ٦: ١١٥].

لا حدود للملكوت الحالي لابن الله، ولا حدود لمدى خلاصه. بالفعل هو الأعلى، ويأمر بكل شيء حسب مشيئة الآب. هو يمسك بدفة الكون، وبقوة لا تكل، وعلم كلي كامل، يقود كل الأشياء إلى غايتها الإلهية المستترة. هو في كل مكان، في حضور كلي غير مقيّد، يدير كل شيء بقوته. كل البشر له بطرق مختلفة- البعض كأصدقاء له، والبعض كخدام أمناء، وآخرون كخدام فقط [المتفرقات ٧: ٢: ٥]. هو يرعى الكل، ويكيّف صلاحه على الاختلافات بين البشر. لا يحابي أحدًا، لكنه دعى كل البشر بالتساوي، سكب عليهم صلاحه بلا شُح. "كيف يكون مخلصًا وربًا إذا لم يكن مخلص ورب الكل؟" [المتفرقات ٧: ٢: ٧]. فهو مثل الشمس التي تشرق على كل الأرض والسماء، ويرسل أشعتها في كل زاوية، لا شيء أصغر من أن يلاحظه ويهتم به [المتفرقات ٧: ٣:

٢١]. كله آذان مصغية وعيون ناظرة، إن جاز للمرء استخدام هذه النوعية المتهورة من اللغة [المتفرقات ٧: ٧: ٣٧].

وبالتالي كل كاتب يناضل ليوصل الجوانب التاريخية والميتافيزيقية والفدائية للحدث المركزي في التاريخ. يوستين يذكر هذه الملامح، وإيريناؤس يطورها ويتوسع فيها، بينما ترتليان وإكليمندس يؤكدان على جوانب ذات اتجاهين متضادين. من المستحيل أن يعني التاريخ شيئًا بدون الميتافيزيقا. حتى إيريناؤس لا يستطيع أن يقول شيئًا بدون مفهوم الصورة والحقيقة، الموت والحياة، الجزء والكل، الخصوصية والاكتمال، تصحيح الشر وحفظ قوة الخير. من ناحية أخرى، من المستحيل أن تتجمد الميتافيزقيا في مكانها وتستغني عن التاريخ. الحس الثاقب للحقيقة الروحية عند إكليمندس يتسم بحس حركي وتجديد متسع، كتابيًا وكرازيًا: جعل الله كل شيء جديد، وإن صار أي إنسان في المسيح ستوجد الخليقة الجديدة.

(٣)

أين نقف الآن في مسار التاريخ؟

نحن الآن في عصر الكنيسة، وهذا يعني أشياءً مختلفة في رأي كُتّاب مختلفين. إن وصف يوستين للكنيسة يعتمد كليةً على نظرته للتاريخ واتصاله ومناظراته مع اليهود. كيف للمسيحيين أن ينتمون لله وفي نفس الوقت يعترفون أن وعد الله جاء لإبراهيم ونسله؟ يزعم يوستين أن فشل إسرائيل القديم جعل الله يختار مرة أخرى. الزعم بأن الكنيسة هي إسرائيل الحقيقي الآن يمتد من بداية [الحوار ١١: ٣] إلى نهاية [الحوار ١٢٣- ٣٥]. هذا في الواقع الفكرة الرئيسية لهذا العمل. فاليهودية بسبب خطيتها خسرت حقها في أن تكون شعب الله لصالح إسرائيل آخر يتقدّم كشعب جديد لله، منحدر من الآباء البطاركة، الذين كانوا قبل الناموس. "لأننا الذين وصلنا إلى الله من خلال هذا المسيح المصلوب، نحن إسرائيل الروحي الحقيقي، خراف بيت يهوذا ويعقوب وإسحق ويعقوب وإبراهيم الذي قبله الله وباركه مع أنه غير مختتن. وذلك لأجل إيمانه، وقد دُعي أبًا لأمم كثيرة، وسأثبت لكم هذا في معرض حديثنا." [الحوار ١١].

إلا أن المفهوم الكنسي البسيط ليوستين لا يعني أنه غير واعٍ بالكنيسة. لكنه يمتلك وعيًا حيًا بالوحدة المسيحية، وهو أول كاتب يسهب في استخدام كلمة "مسيحي". ودافع عن هذا الاسم،

وهزأ بالاضطهاد الذي وجِّه للاسم فقط، لأن الناس لابد أن يُحكم عليهم ويدانوا على أفعالهم وليس على الاسم الذي يحملونه [الدفاع الأول ٧: ٤]. يفتخر يوستين بهذا الاسم، ويريد الجميع أن يعرفوا أنه مسيحي [الدفاع الثاني ١٣: ١]، لأن المسيحيين قد أثبتوا أمام الملأ قوة اسم المسيح في طرد الشياطين في كل مكان [الدفاع الثاني ٦: ٦]، ويهتمون ببعضهم البعض بطرق عملية: "الأغنياء فينا يساعدون المحتاجين، ودائمًا بجوار بعضنا البعض" [الدفاع الأول ٦٧: ١].

إمّا إيريناؤس فلديه إحساس عميق بالحقيقة الجامعة للكنيسة التي تربطه من خلال بوليكاربوس ويوحنا وآخرين بكلمات وأعمال يسوع. الادعاء الذي يربطه عبر التاريخ بالحدث المركزي الأوحد يتمثل في سلسلة من الأشخاص الذين كانوا قد سمعوا وعرفوا كلمة الحياة. ودفء هذا المفهوم يبرد بوجود تقاليد منافسة، بينما تفرض الهرطقات تحديدات ومجادلات على كل مَن يدعون بأنهم يمثلون الكنيسة. ولأن المرحلة الحالية من تاريخ الخلاص تظهر في الكنيسة، التي تمتد من الماضي عبر الحاضر إلى المستقبل، تعلّم وتقدّس، وإن تأسست في مكان واحد، إلا أنها في العالم كله.[24]

[24] Cf. L. Spikowski, *La doctrine de l'église dans S. Irénée*, (Strasbourg, 1926).

الكنيسة امتداد للمسيح في العالم بينما يضم المسيح أعضاءه المفديين معًا في نفسه. والحدث المتوج لخلاصه يرتفع في مركز التاريخ، وليس هناك شك من انتصاره الكامل. قَبِل الرُّسل كل الحق في يوم الخميس، ولا شيء يمكن أن يُضاف إلى كرازتهم [ضد الهرطقات ٣: ١: ١]. أعمال الأنبياء سُلمت إلى الرسل، الذين سلموا نفس المهمة إلى الكنيسة [ضد الهرطقات ٥- مقدمة]. والكنيسة بدءًا من مركز التاريخ تملك التعليم الرسولي الكامل [ضد الهرطقات ٣: ٤: ١]، وهي قادرة على تقديم الغذاء لمن يأتون بعد ذلك [ضد الهرطقات ٤: ٤١: ٢]. كان الرسل أغنياء في امتلاكهم للحقيقة، وقد مرروا ملء الحقيقة للجميع. الإيمان الواحد والتقليد الواحد للكنيسة يشيران إلى بساطة الحقيقة وقِدمها [ضد الهرطقات ٣: ١٤].[٢٥]

الامتداد والكمال يسيران يدًا بيد. التعليم الصحيح لابد أن يأتي من التسلسل (الرسولي)، التي يبدأ بشهود، ولابد أن يُستمسك به بقوة وباستمرار، ولابد أن يكون متاحًا لكل الناس [ضد الهرطقات ٣: ٣: ٤؛ ٣: ١٢: ٩؛ ٣: ٤: ٢؛ ٣: ١٤: ١]. تعليم الرسل يختلف عن اختلاقات الهراطقة [ضد الهرطقات ٤: ٣٣: ٢؛ ٤: ٥٢: ١]. توفر قاعدة الإيمان معيارًا لتفسير الكتب المقدسة، لأن تنوع

---

[25] M. Widmann, 'Irenäus und seine theologischen Väter', ZThK, 54 (1957), 172f.

الكتب المقدسة لابد أن يُربط بالله الواحد والمسيح الواحد. وبمعزل عن الكتب المقدسة لا يوجد طريق للوصول إلى معرفة الخلاص.[٢٦]

من خلال الادلة المتاحة لنا، يبدو أن إيريناؤس أخذ مصطلحاته عن التقليد والمعرفة والكمال من الغنوصية. لا يوجد شك أن إيريناؤس يعطي للرسل مكانة من الأهمية الكبيرة في منظومة الحق المسيحي. وكلامه عن التسلسل (الرسولي) هو جواب على كلام سابق قال به الغنوصيون.[٢٧] ومع ذلك يظل كلامه تعبيرًا جيدًا عن انشغاله بالتاريخ واتصاله، بينما يستخدم المصطلحات على طريقته الخاصة.

السلطان الكامل لله يظهر عبر التاريخ البشري. تاريخ الإنسان هو تاريخ رعاية الله لخليقته [ضد الهرطقات ٣: ٢٠؛ ٣: ٣٢: ٢]. كل أعمال الله تحكمها حكمته لتناسب طبيعة الإنسان. هناك فرق بين زمن التنبؤ عن المسيح والزمن الذي أرسل فيه المسيح للإنسان [ضدالهرطقات ٤: ٥٦: ١]. كل حقبة زمنية لها طابعها الخاص [ضد الهرطقات ٤: ١٩: ٢؛ ٣: ١٧: ٧]. وبينما يتحرك التاريخ إلى الأمام،

---

[26] Bengsch, *Heilgeschichte und Heilswissen*, p. 62: 'Ausgehend vom empfangenen Glauben, bleibt auch der "Wissende" Schüler des einzigen Lehrers Jesus Christus'.

[27] Cf. D. B. Reynders, 'Paradosis, Le progrés de I'idée de tradition jusqu' à S. Irénée', RThAM, 5 (1933), 191.

ينتشر الخلاص على نطاق أكبر ليضم كل البشرية. ويعلن الآب عن ذاته من خلال كلمته لكل البشر، لكيما يُرى [ضد الهرطقات ٤: ٣٤: ٥- إلخ]. رُفعت الأمم بخطة الخلاص. الكنيسة تأتي من الأمم [ضد الهرطقات ٤: ٤٦: ١]. خطة الله لا تُحد ولا تفشل بإخفاق الإنسان. ذنب اليهود لا يحبط الله، ومصيرهم يخدم الغاية النهائية للخلاص. وكلما تقدّم الخلاص في مسار تاريخه، ازداد فيض النعمة وامتد وانتشر الخلاص أكثر في العالم [ضد الهرطقات ٤: ١٨، ١٩].

يستطيع إيريناؤس أن يعيش سعيدًا وواثقًا بين الانجماع الكلي والباروسيا. يوجد شيء غير صحيح هنا؛ لأن الانجماع الكلي يجب أن يكون النهاية. يرى إيريناؤس أن التاريخ يستمر تحت شرط صارم هو أنه لا يُسمح بإضافة شيء جديد. قد تتدفق النعمة أكثر وتؤثر في أناس أكثر، لكنَّ كل شيء قد أنجز في المسيح والكنيسة تمتلك ملء المسيح. الكنيسة هي المكان الذي حدث فيه الانجماع، وهو هدف التاريخ في الزمان الحاضر. عندما تصل إلى الكنيسة في الوقت المناسب فهذا هو المفتاح لفهم التاريخ ومعنى الكنيسة[٢٨] والله في حرية سلطانه خلق زمانًا جديدًا،

---

[٢٨] يرى Cullman في كتابه "المسيح والزمن" Christ and Time, London, 1951 أن عمل المسيح الخلاصي قد تَمَّ في الزمن كواسطة medium وأسس قاعدته الحالية في الكنيسة.

جاعلاً كل شيء جديدًا [ضد الهرطقات ٣: ١١: ١]، لكي يزيل أي نقصان من زمن الكنيسة.

يتحدث ترتليان بحماس أشد من إيريناؤس عن التقدُّم الانتصاري للإنجيل: "لسنا إلا أولاد الأمس، وقد ملأنا كل مكان بينكم - المدن، الجزر، القلاع، المدن والأسواق، المعسكرات. القبائل، الجماعات، القصر، مجلس الشيوخ، والساحات العامة" لم يُترك شيء للأمم غير معابد آلهتهم الفارغة [الدفاع ٣٧]. مدى قوة الرومان كبير، لكن اسم المسيح انتشر في كل الجهات، لأنه يُعبد في كل الأماكن، ولا يوجد ملك له حظوة أعظم بين رعاياه [ضد اليهود ٧]. يواصل تلاميذ المسيح عمله الخلاصي ويذهبون إلى كل العالم [الدفاع ٢١]. لا شيء يستطيع إيقافهم، لأن دماء المسيحيين هي البذار التي ينمون بها [الدفاع ٥٠].[٢٩] سيرة المسيحيين تؤكد شهادتهم: "انظروا كيف يحبون أحدهم الآخر وكم هم مستعدون أن يموتوا لأجل أحدهم الآخر." [الدفاع ٣٩] إذا اجتمع الأناس الأبرار والأتقياء والأطهار معًا، فلا مكان للشقاق. إنها عائلة. يرى ترتليان أن الكنيسة هي مجتمع مملوء بالروح القدس، مجتمع للأناس الصالحين والقديسين، وليست بالضبط المؤسسة الإلهية كما يراها كبريانوس. لكن الكنيسة

---

[٢٩] قارن تي إس إليوت في (Murder in the Cathedral) الخورس الأخير: "من هذه الأرض ينبت ما سيجدد الأرض إلى الأبد، بالرغم أنه مرفوض منها."

تُعرف بسمات يمكن ملاحظتها: التعليم، والناموس، والتقليد قابلون للفحص. الكنيسة تقبل بدايتها من الرسل الذين أرسوا الأساس بكرازتهم، وتعاليمهم هي السمة المميزة لكل كنيسة أسسوها. قاعدة الإيمان الرسولي، الذي سلمه الأساقفة تحكم حياة الكنائس وتمنحها اتحادًا في كل مكان [علاج الهراطقة ٣٢]. كنائس الرسل توفر المصدر الأكيد للإيمان الحقيقي الأصيل،[٣٠] بينما الطوائف لا يربطها شيء بالرسل. لأن البيت الحقيقي للكنيسة هو في السماء، فهي دائمًا غريبة على الأرض. كنيسة الله يقابلها كنيسة إبليس؛ لكنها هي السفينة الصغيرة التي ينجو فيها الرسل من العاصفة.

بين الكنيسة والروح القدس والثالوث، هناك تطابق وتماثل(وهذا يظهر بوضوح في أعمال ترتليان المونتانية). حيث الروح القدس، هناك الله. حيث يظهر المسيح نفسه بين أعضائه، توجد الكنيسة. لا يتجاوز ترتليان هذه الفكرة عن الكنيسة كمجتمع؛ فهي لا تمثل أبدًا جماعة الأساقفة، بل هي دائمًا ذلك المجتمع المكون من أعضاء المسيح، المملؤين بالروح القدس [عن الاعتدال ٢١]. داخل عائلة الكنيسة يتغذى المسيحيون ويشاركون

---

[30] Altendorf, *Einheit und Heiligkeit der Kirche*, (Leipzig, 1932), pp. 14f.

أخويتهم لأم واحدة.[٣١] الكنيسة تُدار بالرعاة، والأساقفة، الذين أقامهم الرسل [الهروب من الاضطهاد ٢٣: ١]. الفرق بين النظام (ordo) الذي يحكم الكنيسة والشعب (plebs) المحكمون فيه يُبنى على سلطان الكنيسة [الحث على العفة ٧: ١]. الإكليروس لهم الدور الأكبر أهمية، أما الشعب فلهم دور أقل. إلا أنه لا يوجد قدسية خاصة متصلة بمنصب الكاهن، ومن الخطأ أن نتصور أن هناك أشياء يُسمح بها للكهنة وغير مسموحة للشعب العادي. أليس هؤلاء الذين هم علمانيون هم كهنة أيضًا، لأن كل واحد يعيش حسب إيمانه؟ [الحث على العفة ٧: ١]. الأسقف لا يحكم بالأمر imperium وإنما بالخدمة ministerium [عن الاعتدال ٢١: ٦: ١]. التمييز داخل الكنيسة بين الإكليروس والشعب له طابع تنظيمي عملي فقط. لا يريد ترتليان أي شيء من البناء الهرمي الذي صاغه كبريانوس بعد ذلك،[٣٢] لكنه تحرك نحوه في بعض النقاط.

بالنسبة لإكليمندس، يجب أن تكون رائحة المسيحيين مختلفة عن الآخرين، وخالين من الروائح الأرضية، ولهم رائحة سماوية روحية ذكية [المربي ٢: ٨: ٦٥]. لا يهتم إكليمندس كثيرًا

---

[٣١] نفس المرجع السابق، صفحة ٢٣.

[٣٢] نفس المرجع السابق، صفحة ٢٧.

بشكل أو بنظام الكنيسة[33] لكنه يهتم كثيرًا بالحياة الحاضرة، التي تحدث فيها المعجزة الإسخاتولوجية. العضوية الحالية في السماء تحسم السلوك على الأرض. النهم لا يؤدي إلا إلى الموت، وهو شيء غبي وغير عقلاني. فكم بالأحرى أفضل جدًا أن نتلذذ بالصلاح السماوي الذي توجهنا إليه الأغابي [المربي ٢: ١: ٩].

لكن امتياز الغنوصيين لا يمثل أبدًا إنجازًا تضامنيًا، وما فعله المسيح لا يمكن معرفته إلا داخل جسده، الكنيسة. عطايا الله تذهب إلى أعضاء شتى في جسد المسيح بحيث ينمو الجميع إلى ملء قامة المسيح. الكمال موجود بطرق مختلفة وبواسطة عطايا مختلفة، بالأنبياء في النبوة، بالأبرار في برهم، بالشهداء في اعترافهم، بالكارزين في كرازتهم. كان الرسل هم الاستثناء الوحيد، لأنهم كانوا كاملين في كل ما فعلوه، وكتبوه وعرفوه، وكرزوا به [المتفرقات ٤: ٢١: ١٣٣ إلخ]. داخل الكنيسة يوجد ربيع دائم، حالة من الشباب تزدهر فيه الحكمة دائمًا. الله يعزي أولاده كأم تعزي صغارها. "الأم تجذب أبناءها إليها، ونحن نطلب أمنا الكنيسة" [المربي ١: ٥: ٢١]. تشبيه الأم والأبناء يتضمن ثلاث أفكار رئيسية: التشبيه يوحي بشباب الإنسان المسيحي في ربيعه اللازمني، ويكشف عن احتياج إلى النمو نحو الكمال.

---

[33] See: the critical account of H. von Gampenhausen, *Ecclesiastical authority and spiritual power* (London, 1969), pp. 196-21

كما أنه يبرز الكمال الحالي للعمل الإلهي. "يوجد أب واحد للكل وكلمة واحدة للجميع: الروح القدس واحد وهو ذاته في كل مكان، وتوجد أم عذراء واحدة. أحب أن أسميها الكنيسة" [المربي ١: ٦: ٤٢]. الأم تغذي الطفل بلبن الكلمة. إكليمندس يعقد التشبيه بقوة لكنه يخرج منه بصعوبة بواسطة التلخيص. "الكلمة هي كل شيء بالنسبة للطفل، وكل من الأب والأم، المربي والمرضعة" [المربي ١: ٦: ٤٢]. قداسة الكلمة تنبع من الله التي تأسست الكنيسة لإكرامه؛ "ذلك الهيكل الثمين بُني ليس بمهارة حرفي، ولم يُزين بيد ملاك، لكن جُعل مَقدِسًا بمشيئة الله نفسه". هذه الكنيسة ليست "المكان وإنما جمهور القديسين"، الذين هم مقدس الله الأكثر جدارة من بين كل مخلوقات الله، الغنوصي هو الأغلى، وفي نفس البار يجد الله موضعه المقدّس. مرة أخرى يسمح إكليمندس هنا بعدم الكمال داخل الكمال. هؤلاء الذين على طريق الحصول على المعرفة هم مقدسون بالفعل في نظر الله [المتفرقات ٧: ٥: ٢٩]. لذلك يُحمَل الله داخل هؤلاء الذين يحملهم، وهم بالفعل مقدسون وينتمون إلى الله. ليس لديهم رغبات بخلاف الله، الذي في داخلهم، وهم يدخلون السماء بمعرفتهم، مرتفعين فوق كل القوى الروحية إلى أعلى العروش [المتفرقات ٧: ١٣: ٨٢]. مثل هذا الإنسان يبغض الكنوز الأرضية، لأنه صديق حميم لربه، وهو أمير وملك يعيش في حياة القداسة والصلاة.

وهو بصلاته يسود على الزمن؛ فهو يشكر من أجل الماضي والحاضر والمستقبل، المستقبل الذي أصبح ملكه من خلال الإيمان [المتفرقات ٧: ١٢: ٧٩؛ ٦: ٩: ٧٥]. وبالصلاة الدائمة يتحد بالله لدرجة تجيز له أن يطلب أن يفهم كيف تسير أمور الخليقة كلها، وفي النهاية يرى الله وجهًا لوجه [المتفرقات ٦: ١٢: ١٠٢]. أين نحن الآن على مسار الخطة الإلهية العظمى؟ مَن أصبحوا مؤمنين صاروا جزءًا من هذه الخطة. يرى يوستين أنهم قُطعوا من جنب المسيح نفسه ليشكلوا إسرائيل الروحي الجديد. بينما يرى إيريناؤس أنهم جزء من نهر للنعمة آخذٌ في الاتساع بلا توقف ويتدفق من خلال الرسل. أمّا عند ترتليان فهم مجتمع مليء بالروح القدس يحضر المسيح فيه. أمّا إكليمندس فهم يحيون بالفعل حياة السماء تحت رعاية دائمة من أمهم العذراء، أي الكنيسة. ينبع الواقع الاسخاتولوجي الروحاني المذهل للمجتمع المسيحي من موقعه بعد انجماع كل شيء في المسيح. لا يوجد شيء يمكن أن يُضاف، لكن المذهل أيضًا أنه لا يوجد شيء يمكن أن يُفقد؛ لأن نهر النعمة يمتد ويتجاوز شطآنه الأولى. لذا فإن المجرى الذي يوحد المسيحي بأخيه المسيحي هو مجرى سماوي لا يستطيع أن يخلقه ولا حتى يفهمه بالكامل. لكن الأكثر بشاعة هي الهرطقات التي تهدد هذا المجتمع، لكنها تجعل حياة هذا المجتمع بمثابة كنز يجب حراسته بصرامة.

(٤)

هل يحقق الإنسان تقدمًا في مسار التاريخ؟

هل الصراع المسيحي صراعٌ دفاعيٌّ أم هجوميٌّ؟ هذا عامل مهم في إشكالية الشر. جزء كبير من فكر إيريناؤس يتحدث عن التقدّم في نضوج الإنسان وتطوره. بعض النصوص توحي بأن الإنسان خلق كطفل، ثم وصل إلى الاكتمال بالتطور الطبيعي من خلال أطر محددة بوضوح [ضد الهرطقات ٤: ٦٣: ٢، ٣]. نصوص أخرى تتحدث بالأحرى عن خسارة آدم التي رُدت بعمل المسيح [ضد الهرطقات ٥: ١٢: ٥]. قد يظهر نوع من التناقض بين الفكرتين. لكن بالفحص الدقيق يختفي التناقض.[٣٤] سقط الإنسان في آدم، لكن نعمة الله قادرة أن تحول الكارثة التي ألمت بالجنس البشري كله، لتكون جزءًا من عملية الفداء. لا شك أن فكرة التقدّم والنمو منتشرة بشكل مذهل في كتابات إيريناؤس. كانت خطة الله أن الإنسان الحيواني يسبق الإنسان الروحاني [ضد الهرطقات ٥: ١: ٣]. كان على الإنسان أن يصل إلى النضوج [ضد الهرطقات ٣: ٣٢: ١]. رأى الله وعرف مسبقًا ضعف الإنسان وتبعات ضعفه [ضد الهرطقات ٤: ٦٣: ٣]. الله قادر أن يرى مسبقًا كل الأشياء من أجل خلاص الناس [ضد الهرطقات ٣: ٢١: ١]. النمو

---

[34] C.f. Benoit, S. Irénée, especially pp. 181f., and pp. 199ff. I owe this solution of the puzzle to A. Orbe, S. J., of the Gregorian University, Rome.

المسيحي هو نضوج للخلود [ضد الهرطقات ٥: ٢٩: ١]؛ يصبح المسيحي، كما صاغ أغناطيوس الأمر قبلاً، خبز الله النقي [ضد الهرطقات ٥: ٢٨: ٣]. في كل حياة فردية، الكلمة يقود الإنسان عبر مراحل مختلفة وصولاً إلى نضوج المسيح. يعتمد تقدُّم الإنسان [ضد الهرطقات ٤: ٦٣: ٢] على استمرارية تشكيله بواسطة الابن. سلسلة الأنساب المسيح التي أوردها لوقا تشير إلى تاريخ آدم على أنه تاريخ الإنسان [ضد الهرطقات ٣: ٣٢: ١]. بعد السقوط أصبح الإنسان أكثر عقلانية وتوقف على أن يكون عبدًا لأهوائه [ضد الهرطقات ٣: ٣٥: ١]. فكرة طفولة آدم واحتياجه للنمو ليصل إلى النضوج غير محصورة في نص واحد لإيريناؤس [ضد الهرطقات ٣: ٣٢: ١؛ ٤: ٦٢، وكذلك ١٤- E].

كانت طفولة الإنسان جسدية وأخلاقية أيضًا، لكنه تقدّم نحو الكمال وكل الأشياء تجهزت لاكتماله [ضد الهرطقات ٤: ٦١: ٢]. التطور من آدم إلى المسيح يتضمن عطية إلهية وكذلك تعليمًا بشريًا، وهو موجّه لكل من الأفراد والإنسانية في مجملها [ضد الهرطقات ٤: ٦٢]. لم يكن تطورًا طبيعيًا، وإنما استعادة شيء كان قد فُقد [ضد الهرطقات ٤: ١٨؛ ٥: ١٦: ١؛ ٥: ١٧: ١؛ ٣: ٣٣: ١]. ونتيجة الإعلان المتدرج هو أن الابن أعطى حياة لهؤلاء الذين يرون الله [ضد الهرطقات ٤: ٣٤: ٧]. أصبح الإنسان ما يجب أن يكون عليه في علاقته بالله، كمخلوق في علاقته بخالقه.

هناك جوانب عديدة لتقدُّم الإنسان: لقد طُرد الإنسان من الفردوس لأن الله أشفق عليه ولم يُرِدْه أن يبقى في الخطية. الموت وضع حدودًا للخطية [ضد الهرطقات ٣: ٣٥: ٢]. ثم وفر الناموس تأديبًا خارجيًا ليحكم الإنسان، بينما الإنجيل حرَّك الإنسان في حرية [ضد الهرطقات ٤: ١٨]. ما فقده الإنسان ليس عطية زمنية، ولكن هدفًا، وهو المكافأة النهائية للكمال والخلود. لقد حوَّل الخطية والموت ليكونا جزءًا من خطته ليقود الإنسان نحو الغاية النهائية. الانجماع الكلي هو نتيجة تعليم الله للإنسان وتتويج عمله في الخلق [ضد الهرطقات ٣: ٢١: ١؛ ٥: ٢١: ٣]. جهز الله كل شيء من أجل تكميل الإنسان ونضوجه، بحيث يستطيع أن يرى الله ويستوعبه [ضد الهرطقات ٤: ٦١: ١]. احتاج الإنسان أن يتعلم الفرق بين الخير والشر بالتمييز بينهما وباختبارهما.

في النهاية، الكلام عن التقدُّم عند إيريناؤس لا يخلو من التوترات. في بعض الأحيان يعالج إيريناؤس الأفكار بدرجة أقل مقارنةً بالصور والانطباعات والكلمات. كلمات مثل "الحياة"، "الموت"، "القيامة"، "الخلود"، "الصورة"، "المثال"، "الروح"، تُستخدم أحيانًا بمعنى فائق للطبيعة، وأحيانًا بمعنى طبيعي، وأحيانًا بمعنى أكثر مراوغة.

لقد أفرد إيريناؤس مساحة لكل من سقوط الإنسان ونهوضه بدون أن يوضح دائمًا كيف يتفقان معًا. قطعًا هذا التوتر يبرز

نعمة المخلص الذي، كما يصفه إكليمندس، يحوِّل كل غروب في حياتنا إلى شروق. لكن كما استخدم إكليمندس أكثر من تفسير لأصل الفلسفة، كذلك استخدم إيريناؤس أكثر من رواية عن خطية الإنسان. هذا التوازي مهم لأنه، كما في حالة إكليمندس، فإن منطق الاعتراض والبينة واضحان.

بالنسبة لشخص تشاؤمي بقوة مثل ترتليان، يبدو من الغريب أن نجد أي رأي عن التقدُّم. عندما كان يجادل ضد هجرة النفوس، يشير إلى أن عدد النفوس ليس ثابتًا. سكان العالم يتزايد والمدن شديدة الازدحام تشكّل مستعمرات لتستوعب الزيادة السكانية فيها. الأراضي القفر تُستصلح وتُزرع.

"من المؤكد أنه واضح جدًا، إذا نظر المرء إلى العالم كله، الذي يصبح أفضل كل يوم من حيث زراعته، وممتلئ بالناس أكثر من قبل في القديم. كل الأماكن متاحة الآن، وكلها معروفة جيدة، ومفتوحة لحركة التجارة. المزارع الأجمل قضت على كل ما تبقى مما كان قبلاً قفرًا خطيرًا و مُوحشًا. الحقول المزروعة قد أخضعت الغابات. القطعان والأغنام طردت الحيوانات المفترسة. الصحراء الرملية بُذرت. الأقفار المتحجرة زُرعت. المستنقعات نُزحت. وما كان قبلاً أكواخ وحيدة، أصبح الآن مدنًا كبيرة. لم يعد أحد يخاف من الجزائر، أو يخشى شطئانها

الصخرية. في كل مكان يوجد بيوت وقاطنون، وحكومة مستقرة، وحياة متمدنة."

لكن نتيجة كل هذا محزنة. لا تقدر الطبيعة أن توفر الغذاء لهذه الأعداد المتزايدة. نحن نشكو بمرارة أكثر، وعلاج الطبيعة يتضمن الأوبئة والمجاعات والحروب والزلازل، وكل هذا يقلل من الزيادة السكانية [عن النفس ٣٠]. إلا أن هذا أيضًا يمثل نظرية حقيقية للتقدُّم، من خلال الدم والدموع اللذين بدونهما لا يمكن الوثوق بالإنسان. يقول ترتليان، إن الله حسب تصور ماركيون لا يمكنه إلا أن يدمر الخطاة، الذين لن يمكنهم أن يجدوا الخلاص أبدًا بدون خوف.

ومع نهاية حياة ترتليان كان قد أصبح متفائلاً عظيمًا. لقد وجد حلاً للتوتر بين الانجماع الكلي في المسيح وخطة الله المستمرة، في المونتانية، التي تجاوزت المسيح إلى تدبير آخر- هو تدبير الروح القدس.[٣٥] هنا أخذت نهائية المسيح مكانة ثانية بعد

---

[٣٥] يشرح لنا أمجد رفعت في كتابه "ترتليانوس الأفريقي"، إصدار مدرسة الإسكندرية، صفحة ٣١- ٣٥ أن انتماء ترتليان للمونتانية لا يعني تركه للكنيسة الأم، وهو لم يدعوا أحدًا في أي وقت للانضمام إلى المونتانية. ويشرح لنا كيف نشأت المونتانية كحركة داخلية من نفس التكوين الكنسي إلى حد قبول بابا روما لها في البداية ثم رفضها فيما بعد. يبين لنا الكاتب أن الباحثين يميزون بين نموذجين للمونتانية: الأول هو المونتانية القائمة على القداسة الشخصية، كنموذج للإصلاح الأخلاقي ضد تجاوزات بعض الإكليروس، وهو النموذج الذي ينتمي إليه ترتليان. أما

استمرار عمل الله الخلاصي. لقد جاء الباراكليت إلى أنبيائه الجدد والمرحلة الأخيرة من تاريخ الخلاص قد بدأت. كان هذا عمل الله الواحد الذي يسود على الكل بحكمته. لكل شيء وقت كما قال الحكيم [سفر الجامعة ٣: ١٧؛ عن خمار العذارى ١: ٥]. ملكوت الله وبره ينمو كما لو كان من بذرة. قضى بر الله طفولته مع الناموس والأنبياء، وشبابه مع الإنجيل، والآن يجد نضوجه مع الباراكليت [عن خمار العذارى ١: ٦: ٧]. حتى جاء المسيح، كانت قلوب البشر قاسية، وحتى مجيء البارقليت كان جسد البشر ضعيفًا [عن الزيجة الواحدة ١٤: ٤]. الآن الباراكليت يغلب ضعف الإنسان ويجلب له الحق والمعونة [الهروب من الاضطهاد ١٤: ٣].[٣٦]

مع ازدياد التوتر بين النقائض التي تميز كل جزء من فكر ترتليان، فإن عصر الباراكليت لم يجلب معه سوى يأسًا أشد بالحالة الحالية للكنيسة. التقدُّم والاكتمال أدى به إلى هجران الكنيسة أولاً لينضم إلى المونتانيين ثم كما يبدو انتقل إلى مجتمع آخر أسسه بنفسه.

كان لإكليمندس بعض من تفاؤل إيريناؤس عندما يتحدث

النموذج الثاني فهو القائم على الانشقاق والتعاليم اللاهوتية المنحرفة، وحاربه القديسان كبريانوس وأغسطينوس.

[36] W. Bender, *Die Lehre über den Heiligen Geist bei Tertullian* (München, 1961), p. 155.

عن السقوط كوسيلة لنمو الإنسان نحو النضج. العصيان حوّل الطفل إلى رجل [حض لليونانيين ١١: ١١١]. لكن تبعات هذه الخطية جلبت ما يكفي من المتاعب إلى أوجاع واضطرابات الكون وفساد الإنسان. ليس الفساد الذي انتقل، كما يعتقد ترتليان؛ لكن كل إنسان يختار الخطية على مسؤوليته الشخصية. كم وجد رأي ينسب لإكليمندس (مثل أوريجانوس) كلامًا عن الوجود المسبق للنفوس. ومع ذلك فالأدلة ليست قاطعة [المتفرقات ٤: ٢٦: ١٦٧].

(٥)

كيف ستكون نهاية كل شيء؟

الادعاء بأن التاريخ قد وصل بالفعل إلى أقصى ذروته، بحيث أنه لم يتبقَ شيء ليُفعل، يعطي شكلاً إلى التطور الكامل وجوهر رسالة الإنجيل. ومع ذلك، فإن استمرارية التاريخ ووجود البشر يتناقض بوضوح مع هذا. لابد من تصور نهاية أخرى لإثبات صحة اكتمال عمل المسيح وبر الله. هذه الإشكالية تحدد نظرة يوستين تجاه النهاية، فهو أول مسيحي يتحدث عن مجيء ثانٍ ويميزه عن المجيء الأول. ويجد الكثير من تنبؤات عن الصليب في الكتب المقدسة، ويستطيع أن يجيب على الاعتراض الأساسي ضد المكانة المسيانية للمسيح: أي صلبه. لكنه لا يستطيع تفسير النبوات الأنتصارية على أساس حياة يسوع بالجسد. لذلك فهو يخصص هذه الشواهد إلى عودة المسيح ويميّز بين مجيئين. "لأن الأنبياء تنبأوا عن مجيئين، أحدهما حدث بالفعل، لمجيء إنسان مذلول ومتألم، لكن المجيء الثاني فإنه كما قيل سيأتي ثانية بمجد من السماء مع جيش ملائكته" [الدفاع الأول ٥٢: ٣]. سيعود كالذي طعنوه وسيُظهر آثار صليبه [الدفاع الأول ٥٢؛ الحوار ١٤: ٨؛ ٣٢: ٢؛ ٦٤: ٧]. في مجيئه الأول في تواضع اضطرب العالم، فكم بالأحرى ستكون قوته أعظم عند مجيئه في المجد [الحوار ٣١: ١]. التوتر الذي ولده المجيئين للمسيح كان حادًا، خاصة في

القرن الثاني. لم توجد إجابة واضحة لإستمرارية التاريخ بعد عمل المسيح الكامل المكمَّل. يعطي يوستين أفضل صيغة مذهلة ومناسبة عندما يتحدث عن العيش في "وسط مجيء المسيح" [الحوار ٥١: ٢].

أمّا الخيال التصوري لإيريناؤس فيعطيه نظرة زاهية عن النهاية الآتية. ملكوت الابن [ضد الهرطقات ٥: ٣٦] سيدوم ألف سنة من القيامة الأولى (أو قيامة البار) إلى القيامة العامة لكل البشر. إيريناؤس يربط بين رؤيا ٢٠ وكورنثوس الأولى ١٥: ٢٤ - إلخ، وكذلك نصوص أخرى مثل متى ٢٦: ٢٩ (عن شرب يسوع من ثمار الكرم)، ورومية ٨: ٢١ (الحرية المجيدة لأبناء الله). وعند نهاية الألف سنة يسلّم الابن الملكوت للآب، ويصبح الله الكل في الكل. ويُرى ملكوت الابن بشكل واضح وملموس كما في بحيرة النار التي سيحترق فيها الأشرار إلى الأبد. لا يمكن لاستعادة كل شيء أن تُفسّر رمزيًا [ضد الهرطقات ٥: ٣٢، ٣٥]. كما قال إشعياء الأسد سيأكل التبن. هذا لا يعني ببساطة أن الخليقة ستعاد بحيوانات مستأنسة، خاضعة للإنسان، وتأكل من ثمار التربة. بل يعني أن الثمار ستكون ذات حجم مذهل وجودة مذهلة؛ لأنه "إذا كان التبن جيد بما يكفي لتغذية الأسود، كيف سيبدو القمح؟" [ضد الهرطقات ٥: ٣٣: ٤]. ومثلما تحمل الكرمة والحنطة ثمارًا في مواسمها بكل تاكيد، كذلك أجساد

البشر التي كانت تتغذى بالأفخارستيا ستقوم ثانيةً لتدخل إلى مجد الله [ضد الهرطقات ٥: ٢: ٣]. آية يونان تشير إلى صعود الجسد إلى الخلود والأبدية [ضد الهرطقات ٣: ٢١: ١؛ وقارن أيضًا ٥: ٨: ١]. (يتحدث إيريناؤس عن نفوس الأفراد وأجسادهم وأرواحهم). وكما أن عطايا الله الصالحة هي أبدية، كذلك خسرانها أبدي أيضًا. الأشرار يكونون في بؤس شديد ويُرسلون إلى الدينونة في النار الأبدية [ضد الهرطقات ٥: ٢٧].

من المهم أن نلاحظ أن إيريناؤس يخفف من التفسير الحرفي للعجائب الاسخاتولوجية في [شرح الكراز الرسولية ٦٧]بعد ما دافع عنها في ضد الهرطقات ٥: ٣٣ - إلخ. وربما السبب في ذلك يتمثل في خطر جديد من الأفكار والحركات التي تدعو للملك الألفي، أو الرغبة في حماية المؤمنين البسطاء من الترف الزائد، أو نقد معلمين مسيحين آخرين، أو ببساطة نضوج منظوره هو. ومع ذلك، يرى إيريناؤس أن التوتر بين ما هو رمزي وما هو حرفي هو أقل أهمية من التوتر بين الحاضر والمستقبل. النقيضتان سارا معًا بدون حل واضح.

أمّا ترتليان فقد قدم بعض الحلول بعض التوتر بين الانجماع الكلي والتاريخ، بين الغاية في المسيح والغاية الآتية. الحل الأول عنده يكمن في الاسخاتولوجية المستقبلية، أو لاهوت الرجاء. أمّا الحل الثاني فكان المونتانية؛ لكن لاهوته عن الرجاء سبق

وتجاوز مونتانيته.

المسيحيون لديهم ثقة في قيامة الأموات. هذا أساس ثقتهم، ومن هذا الأساس سيدافعون عن الجسد إلى الأبد [عن قيامة الأجساد ١: ٨]. يتحدث ترتليان بنبرات واثقة لكنيسة تعيش في الأيام الأخيرة، معلنًا التحقيق الآتي لكل آمالها. ومع اشتياقه لملء عطية الروح القدس، ومع هجرانه للعالم، ومع شغفه للتضحية والاستشهاد، ومع رجائه المبهج في عودة المسيح المجيدة، وتحقيق الملكوت، وانتظاره الشغوف للعقوبة الأبدية للخطاة، جعل ترتليان الاسخاتولوجية المستقبلية الفكرة المهيمنة للاهوته.

في كل هذه الأمور يتحدث ترتليان بيقينية وثقة. قد تمر الكنيسة اليوم بوقت من الحزن والاضطهاد، لكن درب الصليب لابد أن يؤدي إلى المجد.[٣٧] يُظهر ترتليان اهتمامًا بالحالة المتوسطة لهؤلاء الذين ينتظرون النهاية بعد موتهم، ويستمد أفكاره بشكل أساسي من مَثل الغني ولعازر. الحدث الأكبر في النهاية هو القيامة والملك الألفي الذي يليه. كل شيء آخر مجرد تمهيد، حتى حالة هؤلاء الذين ينتظرون القيامة، بالرغم أنهم قد ينتظرون نصيبًا في هذه التبرئة النهائية.[٣٨]

---

[37] K. Hesselberg, *Tertullians Lehre aus seinen Schriften entwickelt* (Dorpat, 1848), p. 133.

[38] Heinz Finé, *Die Terminologie der Jenseitsvorstellungen bei Tertullian* (Bonn, 1958), p. 236.

أمّا إكليمندس فبعكس معاصريه يجد مكانًا صغيرًا للاسخاتولوجية التقليدية. من حيث الزمان والمكان، اللوغوس هو رب الكل. بعد الموت، يسود العدل، كما رأينا، بهلاك الأشرار، وبالنار المطهرة، وبالمنازل الكثيرة. خطة المنازل قد تبدو غريبة ووهمية. لكنها أي شيء غير أنها وهمية. ولأنه رب للكل، فلا شك في انتصاره النهائي. انتصاره شيء من الماضي، وسيادته شيء من الحاضر. وما يحدث هو أن النفوس، مثل أشياء أخرى، تجد مستوياتها الخاصة. من خلال المبدأ الأول الأعلى، من هناك تمتد لأسفل رتبة بعد رتبة من الملائكة، ثم البشر. جميعهم مخلصون وجميعهم يخلصون الآخرين، وكل الخلاص يُستمد من المبدأ الأول. يقول إكليمندس،[٣٩] هذا يشبه المغنطيس، يمد قوته عبر سلسلة طويلة من الحلقات الحديدية.

الفضلاء ينجذبون إلى مكان أقرب إلى مصدر الطاقة . أمّا الأشرار فيسقطون ويبتعدون. سيجدون مستواهم. "لأن هذا هو القانون منذ البداية، أن من يريد الفضيلة، لابد أن يختارها." (المتفرقات ٧: ٢: ٩).

كيف سينتهي كل شيء؟ يهتم يوستين بأن النهاية يجب أن تبرئ المسيّا المصلوب ويعلن ملء مجده. ويصور إيريناؤس عجائب الاستعادة الكلية. بينما ترتليان تحكمه اهتمامات

---

[39] C.f. Plato, *Ion*, 533.

أخلاقية، بالتحقيق الكامل للعدالة الإلهية. عند إكليمندس، الرواية التقليدية موجودة، لكنهما ثانوية لتخطيط أكثر عقلانية وسماوية يلعب فيه اختيار الفرد عاملاً محددًا.

ختامًا

يظل التاريخ إشكاليةً بالنسبة للمسيحيين، الكلمة الأخيرة قيلت في المسيح، لكنّ النهاية لم تأتِ بعد. تصوّر المسيح كختام انجماعي لكلّ شيء لا يمكن تجاهله كما أراد المونتانيون. لكن التاريخ مازال يسير. كل الأشياء انجمعت في المسيح، بشكل مبدأي، ومع ذلك لم تصل كل الأشياء إلى نهايتها بعد. كان رجاء الكنيسة الأولى هو محاولة تجسير هذه الهوة، مع استخدام، لاحقًا، بعض التعبيرات من الأدبيات الفلسفيّة الأفلاطونية.

لقد استطاعت الكنيسة أن تحيا هذا الانجماع الذي في المسيح، من خلال تلمذة خلاّقة ومحبّة خلاّقة. القيامة ولدت تاريخًا يمتد عبر العالم بقوة الصليب. أدرك المسيحيون أن الحق الذي في المسيح يُمكن أن يُعرف ويُكرز به. والنعمة التي أعطاها كانت استباقًا آنيًا لمجده المعلن في الختام. ومهما ساد الغموض على المؤمنين، لم يشكوا في أن الغاية النهائية هي حرية مجد أولاد الله الكليّة، كما استُعلنت وأُعطيت في المسيح. "قبلت الشعوب المسيح بواسطة مَن استخدموا قصة حياته كوسيلة تحفِّزهم ليأتوا ويروا العالم من منظور خاص؛ ليس كمَن يشرح مبدأً معيّنًا ولكن كمَن يُحقِّق هذا المبدأ ويجلبه إلى الوجود."[40] كان الغنوصيون والأفلاطونيون يتحدثون عن شمولية الوجود،

[40] Mackinnon, *Metaphysics*, p. 163.

والانجماع في أحد الأيونات السمائية، لكنّ العهد الجديد والآباء تحدثوا عن الانجماع كشيء قد حدث بالفعل في التاريخ، ولا يزال يمكننا تحسس وجوده.

مدرسة الإسكندرية